السارق الفتي

بقلم

أشواق مخضور الجدعاني

الفصل الأول
(الماضي)

في منزل فاخر وسط الظلام الغامض ...

يبحث داخل أدراج المطبخ الأنيقة عن ما خف وزنه وغلا ثمنه.

أقساط الجامعة، رهن المنزل أو هدية لأخته المقعدة.

كلها أسباب اجتمعت خلف جبينه الأبيض.

يده المتعرقة تسقط عدد من الملاعق الفضية.

يغضب

-اللعنة

-ماما تقول هذه كلمة سيئة

التفت خلفه فرأى تلك الصغيرة تعقد يديها على صدرها معلنةً اعتراضها، تمط شفتيها الصغيرتين تلبس منامة زُيّنت بكلمة(أميرة).

فزع فور رؤيتها وأسقط كيسه القماشي الذي أصدر أصوات معدنية تفضح ما بداخله.

تجمد للحظات هل يهرب؟ هل يقنعها بالعودة إلى غرفتها؟ ..هل ..هل

-هل تسرق منزلي؟

قطع أفكاره صوتها الطفولي، تزيح شعرها البني عن عينيها الواسعتان.

-آآآه أنا..

- أتحب الفضة؟ منزلنا مليء بها، ماما تقول أن قيمة بعضها يتعدى العشرة آلاف دولار.

طمع السارق الفتي في بقية الفضة، اتسعت عيناه وأمال رأسه إلى الأمام بجشع

-وهل تحفظين أماكنها أيتها الصغيرة؟

-وهل تنوي سرقتها؟

أبتسم لها وقال:

- أستعيرها اليوم وأعيدها غداً.

ابتسمت الصغيرة وقالت:

- لا بأس ... لكنني جائعة ولا أحب التجول وبطني يؤلمني.

وجلست على إحدى الكراسي التي وزعت بنظام حول البار الرخامي، وكأنها تنتظر طبّاخها الخاص ليعد لها وجبة ملكية.

يعيد شعره الأسود إلى الوراء بتوتر، نظراته تتأرجح بين الطفلة الجائعة والنافذة المفتوحة التي دخل منها

-هل تتلاعبين بي أيتها الصغيرة؟!

تجيبه دون أن تنظر إليه

-أنها صفقة، أصنع لي وجبة إفطار وأنا سأعيرك الفضيات جميعها.

-حسناً وجبة واحدة وبعدها نبحث عن الفضيات.

أومأت الصغيرة برأسها تعني الموافقة.

فتح الثلاجة الكبيرة أخرج ثلاث بيضات وأخرج وعاء من الخزانة الزجاجية وبدأ بعمل الخبز الفرنسي.

وضع ثلاث قطع من الخبز الفرنسي أمام الصغيرة.

التي نظرت إليه باستغراب

-ما هذا؟

أجاب بابتسامة واثقة

-أنا أفضل من يصنع الخبز الفرنسي .. فأنا أعمل طباخ في المطعم الـ.. وصمت.

-أي مطعم؟ قالت

-آسف لا يمكن أن أكشف لك عن مقر عملي أو اسمي.

قالت الصغيرة بحماس:

-أنا أعرف لنستخدم أسماء مستعارة. سأكون أميرة، وأنت؟

قاطعها الشاب وهو يعقد يديه:

-دعيني أحزر وأنا فارس.

ردت الصغيرة بفرح:

-رائع.

أعادت الصغيرة نظرها إلى الطبق المعد باحترافية وقالت باشمئزاز

-فارس لا أحب هذا.

عقد فارس يديه وسأل حانقاً:

-ولما لم تخبريني منذ البداية ؟

أجابت الصغيرة

-ماما تقول من العيب أن أقاطع الكبار.

-حسنا ماذا تريدين؟

-أحب البان كيك.

ينحني بطريقة مسرحية ويقول

-أمرك يا أميرتي.

ضحكت الصغيرة من حركته الغريبة

فقال لها واضعا إصبعه على فمه

-شششششش لو علم والديك أنني هنا لن أتمكن من استعارة الفضيات.

وبدأ الطبخ من جديد وينتهي من الطبق الثاني بعد رشه بصوص الشوكولا المحلى

يضع الطبق أمامها قائلاً

-تا ترتا

نظرت الصغيرة إلى الطبق ومطت شفتيها

-مممممم

الشاب معترضاً

-ماذا!!

-أين قطع الفراولة؟

- لم تخبريني أي شيء عن الفراولة!

الصغيرة تبرر

-ماما قالت

قاطعها الشاب محاولاً أن يمسك أعصابه و يديه تضغطان على صدغيه عله ان يمنع عقله من الطيران

-أعلم أعلم، هل تريدين أي إضافة مع الفراولة.

-لا فقط الفراولة.

من الجيد أن الخليط ما زال في الوعاء ليكفي طبق أخر، يخرج قطع الفراولة ويقطعها مكعبات صغيرة ويضيفها إلى الوعاء ويخلطها بالملعقة الكبيرة وأفكاره تتضارب، هل سيوقع نفسه في المتاعب ببقائه مع الصغيرة أميرة؟ لولا حاجته للمال لما بقيّ ثانية هنا

يضع الطبق مرة أخرى أمام أميرة

ابتسمت وقالت

-أخيراً كما تعده أمي

راحة كبيرة سرت في جسد السارق

بعد أن يرحل من هنا بضع، سرقات أخرى ولعله سيتمكن من جمع المال لعملية أخته الصغيرة المقعدة، لن يسمح لطفولتها أن تنتهي وهي لم تجري في المنتزهات أو تلعب لعبة الاختباء كبقية اقرانها .

فور أن يجمع المال سينتهي من أول أهدافه التي أثقلت كاهله

-انتهيت.

قطعت أفكاره أميرة وهي متحمسة للبحث عن ما سيسرقه، هو أبتسم على براءتها الساذجة

حمل أمتعته قائلاً

-السيدات أولاً

تمشي تلك الصغيرة بثقة كبيرة تشير له هنا وهناك

ويلتقط هو كل ما يراه ثميناً

الفصل الثاني
(الحاضر)

طبق جهاز الكمبيوتر المحمول

وعاد إلى الوراء ليجلس مسترخياً على كنبة المقهى ذات اللون الأرجواني

قالت له منتظرةً رأيه بقلق :

-ما رأيك؟ هل أتقنت كتابة ما حدث؟

فك ربطة عنقه ذات الماركة العالمية وقال:

-نسيت الجزء الذي يفضح شقاوتك تلك الليلة.

ضحكت بشقاوة وقالت

-أية جزء؟

أبتسم وأشار عليها بيده ممازحاً

-أنها نفس الضحكة الشيطانية.

-حسناً يا جيمي، الآن أنت الذي تتلاعب بي.

يضع يده على صدره ويقول

أنا محامي معروف بمهارتي، فإن أخطأت كتابة القصة سأقاضيك ليلاً نهاراً

ابتسمت لترد عليه

-وأنا كاتبة مشهورة، مقال واحد ويعرف الجميع القصة الكاملة بأسمائها

الحقيقية.

جمع كفيه وقربهما من فمه

-ستكونين محامية قاتلة لو عملت في شركتي، لا أصدق بأنك الأولى على دفعتك في قسم المحاماة وتتجهي فوراً إلى تأليف الروايات وكتابة المقالات.

ترشف الشاي وتقول

-آسفة جيمي، اخترت طريقي وأنا أعشقه.

يرن هاتف جيمي ويرد عليه

-أهلا حبيبتي، نعم نحن ننتظرك في المقهى، وأنا أيضا أحبك.

يعيد نظره إلى إميلي

-ستكون هنا في دقائق.

-رائع، سأطلب لها شيئا لتأكله.

أشارت إميلي إلى النادل، وطلبت كوباً من الصودا الخاصة بالحمية كما تحبها إيفا ووجبة شطيرة كلوب دجاج

دخلت امرأة المقهى تدفع أمامها عربة أطفال زرقاء من النوع الخاص بالتوائم، وبطنها المستدير يدل على قرب ولادتها.

يراها جيمي ويسرع إليها يحتضنها يهمس لها بكلمات قليلة لتبتسم بسعادة يتناول العربة منها ويقربها من كنبته يحمل الصغيرين إيما و إيثان، يجلسهما على رجليه ويقول بصوت مضحك

-كيف حال توأمي المفضلين؟ ويقبلهما ليضحك الصغيران بغرابة لا تتناسب إلا للأطفال.

تصافح إيفا إميلي ويبادلان عبارات الترحيب ثم

تجلس بجانب زوجها وتخلع حذائها المسطح

يحضر النادل الطلب الخاص بإيفا ويضعه على الطاولة الخشبية فترشف من الصودا حتى انتعشت وتناولت الشطيرة وقضمت منها، نظرت إلى زوجها وقالت

-يا إلهي ابننا يجعلني أشعر بجوع رهيب.

تقول إميلي بعد أخذت الصغيرين من جيمي

-ها هما كُتّاب المستقبل، سأحولهما إلى كاتبين عالميين.

يرد جيمي

-لا لن أدعك تؤثرين عليهما، سيعملان لدي

ينظر لإيفا

-ما رأيك إيفا؟

أجابت إيفا بعد أن خلعت معطفها ذي اللون (البيج) وقد بانت ملابس حملها، قميص أصفر ربيعي يضيق عند الصدر ويتسع تحته كبقية ملابس الحمل وبرمودا أبيض

-أنا حقا لا أهتم الآن إلا لخروج هذا الراكل من بطني

وتمسح بطنها بيديها.

تخرج إميلي المسجل من حقيبتها الصغيرة وتفتح التسجيل وتسأل

-لأكتب الرواية، عليّ أن أسألكما كيف تقابلتما؟

يقول جيمي بعد أن أنهى قهوته

-لقد قابلتها في إحدى القصور التي سطوت عليها

أكملت إيفا وهي ممسكة بيد زوجها

-هو أنقذ حياتي في الوقت المناسب

أكمل هو بعد أن قَبّل يدها

-لأني أكثر الرجال حظاً، لكن أنا لن أحكي القصة سأتركها لإيفا

يقف ويأخذ الصغار ويجلسهم بداخل العربة

-علينا الذهاب للتنزه في الحديقة العامة

وضعت إيفا كأس الصودا على الطاولة التي بجانبها، وأراحت جسدها على الصوفا لتبدأ الحكاية

الفصل الثالث

-هممم دعيني أتذكر كيف كانت تلك الليلة السوداء.

أكملت وهي تراقب صحن مثلجات بيضاء تقدمها النادلة الباسمة لطفل صغير.

(الماضي)

برودة تلك الليلة ماثلت برودة المثلجات وذلك الشاب يقف خارج النافذة يعالج قفلها العنيد الثلج يبدأ بالتساقط، ليزعجه الوضع أكثر فأكثر، يداه العارية يشعر بها تتشقق يقول في نفسه (علي أن أتعلم الاقتحام بقفازي الجلدي) يتأفف ثم يعيد حركة العيدان الحديدية التي يدسها بداخل تجويف النافذة، وأخيراً تلك التكة التي تسمح له بالدخول إلى القصر الفسيح، قفل النافذة بهدوء ثم يجلس تحتها ويجمع كفيه فينفخ فيهما عله يبث بعض الدفء،

يلبس قفازه الجلدي الأسود ويعدل قبعته الصوفية التي أخفت شعره، ويبدأ بالبحث عن كل شيء ثمين، لوحة نادرة أو تحفة أثرية، حرص على دراسة القطع الفنية عله أن يصادف قطعة مربحة توفر له مستقبل آمن، يبحث ويبحث

يشعر بطرف أنبوبة حديدية باردة تلتصق بعنقه من الخلف

أرتعب للحظات، صورته في السجن بدأت بالتكوّن في مخيلته، صوت أنثوي يصل إلى مسامعه

-لا تتحرك ...هيا إلى الأمام.

شعور بالراحة يسري في جسده أنها فتاة ربما تماثله في العمر أو تصغره قليلاً،

سيشتت انتباهها ويهرب بلا مشاكل

يقول بصوته الهادئ

-علي أن أتحرك إن كنت سأمشي إلى الأمام

قالت بصوت مرتعش

-حسناً تحرك ببطء نحو الأمام ولا تلتفت إلى الوراء

نفذ هو أوامرها بدقة حتى تبيّن أن أمامه المطبخ الرئيسي فتوقف وتردد في الدخول وقال

-أنا لا أدخل المطابخ مع الفتيات

استاءت هي

-لماذا؟

هز كتفيه قائلاً

-فعلتها مرة وكانت ليلة مزعجة طويلة.

دفعته الفتاة إلى الأمام

-للأسف ليس لك من الأمر شيء أيها المعتوه

تعثر من دفعتها المفاجئة، وسقط على الأرض.

تأوه مصطنعاً بأنه تعرض لألم شديد.

توترت الفتاة من ردة فعله المبالغة، فقالت

-أحمق، أنا أعلم بأنك تتصنع الألم.

وقف ببطء قائلاً

-تسقطينني أرضاً ثم تشتمينني، لست فتاة مهذبة يا حلوتي

ردت عليه

-واقتحام منازل الآخرين عمل مهذب؟ هيا أجلس على الكرسي الأبيض هناك بجانب المغسلة.

جلس جيمي على الكرسي بهدوء

ما زال ملقياً ظهره لإيفا، يدرس الموقع بصمت طقم من السكاكين عن يمينه، كأس وصحن متسخان بداخل الحوض، صحن زجاجي صغير مملوء بنوع ما من الحبوب بجانبه كأس ماء لم يشرب منه شيء صورة امرأة مسنة تحمل طفلة صغيرة، قارورة دواء فارغة ملقاة بجانب سلة القمامة، آلمته معدته بشدة، هذه الفتاة ليست بحالة جيدة أنها تنوي على الانتحار، وربما قد تأخذه معها في رحلة إلى الموت، لا أحد يستحق أن ينهي حياته، عليك بالعيش والعمل بجد ولا بأس بالقليل من المرح لكن طالما هناك نفس في هذه الجسد فأنت ملزم بالعيش به حتى آخر لحظاته، أخذ نفساً عميقاً وحسم أمره، هو لن يسمح لها بالموت الليلة

-حسناً ماذا الآن؟

إيفا بصوت حازم

-سأتصل على الشرطة

فقال جيمي:

- أنا لا أفضل هذا

ردت إيفا:

-وكأنني أهتم

-ليس لي لكن لأختي المعاقة، سترسل إلى دار الرعاية فور ارتدائي للأصفاد الحديدية

-أين والداك؟

تغيرت نبرة جيمي وأنخفض صوته:

-ماتا في حادث سيارة

تأثرت إيفا بألمه فيما أكمل هو مستغلاً عاطفتها الأنثوية

-أنا أطلب منك، أرجوك لا تسلميننني للشرطة، عليّ أن أرعاها

-أنا آسفة لخسارتك، إذن لن أسلمك للشرطة لكن عليك الرحيل الآن

قالتها بصوت متعب وكأنها تحمل حزناً ثقيلاً لوقت طويلاً جداً

أما جيمي فقد قلق عليها هو عرف إن خرج من هذا القصر فكأنه قد حكم عليها بالموت هنا وحيدة.

-لا يمكنني المغادرة، لا أملك منزلاً قريبا، أبقيني هنا حتى الصباح وعندها سأغادر

عاد الحزم إلى صوت إيفا:

-إن لم تخرج الآن ستخسرك أختك إلى الأبد

يقول مصّراً على البقاء:

-حسناً لكن إن قرأت خبر موتي غداً أعلمي بأنني ألومك، أيضاً أنا أملك العديد من القصص المدهشة التي ستوقعك أرضاً من الضحك.

(في ذلك الوقت كنت قد يئست من أن أضحك كالسابق ، وأثار وقتها فضولي أنها طبيعته يثير فضولي عبر موضوع ما ليقنعني بأمر أخر حتى اليوم ينجح معي أسلوبه هذا، وقتها لم أزل أجهل ملامحه وهو كذلك لسبب ما ارتحت بالحديث معه هكذا ، ربما لأنني كنت ما أزال أنوي الانتحار فلم أرد أن أودع وجهاً آخراً)

قال هو

-سأخبرك بقصة الأميرة والفارس، لكنها كانت أميرة صغيرة ومزعجة أقسم بأنها كادت أن تفقدني صوابي

(الحاضر)

(وأخبرني بقصتك معه وضحكت كأنني لم أضحك من قبل حتى أنني كنت سأقع من الكرسي الذي أجلس عليه) إميلي معترضة وخجلة

-أنا لا أتذكر قصتي مضحكة بهذا الشكل

إيفا

-أنا آسفة لكن هذه هي الحقيقة، هل تذكرين عندما غادر ماذا قلت له؟

إميلي مبتسمة

-نعم أذكر بأنني قلت له سأنتظره كل ليلة الساعة الثالثة مساءاً بجانب الباب الرئيسي خارج المنزل.

ردت إيفا

-حسناً هو لم يخبرك بهذه القصة خوفاً من غضبك لكنه قال....

الفصل الرابع
(الماضي)

وعندما انتهيت من سرقتي من ذلك المنزل مع أميرة الصغيرة كنت أحمل كيسين ثقيلين من الفضة وبعض اللوحات الثمينة

وقلت لها

-عزيزتي الأميرة سأغادر الآن

وقاطعتني هي وقالت

-وسأنتظر هناك غداً بجانب الباب

وأشارت إلى خارج المنزل

فقلقت قليلاً وقلت لها

-لا، لن آتي غداً

غضبت هي وصرخت

-لكنك قلت أنك ستأتي غداً

قال هو ليهدئها

-أرجوك اهدئي يا صغيرتي ، نعم سأعود غداً

فضحكت الصغيرة وصفقت بيديها لتعبر عن فرحها وأكملت

-سأنتظرك كل يوم بجانب الباب هناك

خرجت من هناك وأنا في هَمٍ عظيم كان من المفترض أن أغادر المنزل فور رؤيتي لها، والآن ها أنا أعَرضُ طفلة صغيرة في عمر أختي للخطر.

من الممكن أن يجدها مجرم ، وضللت طوال الليل أفكر كيف سأحل مشكلتي معها دون أن أكشف نفسي كسارق، وأتيت بفكرة مخيفة، لذا عندما جاء اليوم التالي ذهبت إلى هناك بدراجتي، ملئت الشرطة المنزل، لم أتوقع هذا الكم الكبير من أفراد الشرطة هناك، فتابعت سيري كي لا يشك في أمري وخوفاً من رؤية أميرة لي.

حسمت أمري وعدت إلى هناك في المساء كنت أرتجف خوفاً من أن تكون أميرة قالت لهم بأنني سأمر بهم، وقتها سيقبض علي لا محالة.

إنها ليلة هادئة، لا أرى شيئا مريباً هنا أنا أجيد التسلل باحتراف لكن لا أمل لي إن عرفوا بمجيئي إلى هنا الليلة، سحقاً لهذا الضغط النفسي، وجدت بقعة مليئة بشجيرات متوسطة الطول فدخلت من بينها وأخفيت نفسي جيداً وبعد ساعتين أحسست براحة لعلها لن تخرج، ربما أقفل عليها والديها الباب جيداً، كل عضلاتي تعبت من البقاء جامداً، وعندما أردت الخروج، سمعت صوت الباب يفتح الساعة الرابعة فجراً وها هي الصغيرة المدللة تخرج لتجلس على أرجوحة الشرفة الفاخرة فعلمت أنها لم تقل شيئا عني

خرجت من مكاني بهدوء وصمت ودخلت حديقة المنزل المجاور، اخترت أقرب نافذة لي وعالجت القفل، كانت فيلا أقل فخامة عن سابقتها بحثت عن أقرب هاتف لي بجانب الهاتف صور عائلية مكونة من أم وأب وشاب وفتاة، وشهادة شكر للشاب المدعو براين يبدو أنه خدم مع الحملات المرسلة إلى قارة أفريقيا، يعيد إلي ذكرياتي

القديمة عن تفضيلي للمحتاج على نفسي عندما كنت أتطوع في إطعام المشردين، وبناء المنازل للمعوزين، والداي علقا الكثير من شهادات الشكر، تماماً مثل والدَي هذا الشاب، واليوم أنا الشاب السيء الذي يسرق من طفلة، يقتحم المنازل الآمنة وينهبها في الظلام، عجباً لك أيتها الحياة الغريبة، أنفض هذي الأفكار عن رأسي وأتصل على الهاتف الخلوي للأب السيد جونسون لحظات ويرد

-ألو، من؟!

-أنه أنا براين، أعتذر عن إزعاجك يا سيد جونسون لكنني نظرت إلى منزلك ووجدت ابنتك الصغيرة تجلس على الشرفة

سمعته يعدو مسرعاً حتى وصل لابنته ويحمد الله لسلامتها ثم يصرخ فيّ قائلاً

-من أنت أيها المختل؟ براين مات منذ شهور

لم أتركه ينهي جملته فأقفلت الهاتف مسرعاً ،يبدو أن حالتي أفضل من براين بكثير واقتربت من النافذة، السيد جونسون كان يحمل فتاته الصغيرة ويراقب مقدمة المنزل وبيده الهاتف ويبدو أنه يتحدث مع الشرطة، فسقط قلبي من بين أضلعي كان من المفترض أن أعرف أنها حماقة كبيرة، فعدت إلى مؤخرة المنزل ودعوت ربي أن سكان المنزل تركوه مفتوحاً، ثوان ويحيط رجال الشرطة المكان قبضت بيدي على المقبض وضغطت عليه بكل قوتي وفتح هذا بدون تعقيد خرجت من هناك وجريت دون أن أنظر إلى الوراء

جريت وجريت حتى غادرت الحي بأكمله ثم دخلت أول زقاق مررت به ومن بعدها أمتلئ الحي بسيارات رجال الشرطة، وانتشر الخبر في الصحف عن قصة السارق الريشة.

××××××

إيفا:

-يا إلهي أنت هو الرجل الريشة

جيمي:

-بشحمه ولحمه، والآن أنت الوحيدة التي تعلم لماذا فعلت ما فعلته .

(الحاضر)

وضعت إميلي فنجان الشاي على الطاولة وقالت

-لا أصدق ، هو فعل ذلك؟ هل تعلمين أن والداي حبساني في المنزل حتى بلغت الثامنة عشرة من عمري، وأحضرا لي مربية في الأربعين من العمر آخر عمل لها كان في القوات البحرية، لم يثقا بي حتى كبرت.

قالت إيفا:

-ولا ألومهما، لقد كنت بالفعل طفلة متهورة.

-قالت إميلي مستسلمة:

أعرف ، لكنني لم أتوقع أن يشي بي جيمي، أحتاج بعض المثلجات.

ورفعت يدها لتشير إلى النادلة.

(الماضي)

بدأت العصافير بالزقزقة في الصباح وما زال هو مقفياً عني يجلس على الكرسي الأبيض.

لحظة صمت وهدوء

قصصه المثيرة أشعرتني بالبهجة وددت لو أنه يبقى لعدة ساعات أخرى، قاطع أفكاري هو بصوته الهادئ

-أريد أن أراك

سألته بتعجب

-ألا تخاف أن أرى وجهك، فأدينك بالسرقة أو اقتحام المنزل

رد علي وأنا أشعر من كلماته انه يبتسم لي

-لو أردتني في السجن لكنت هناك الآن

حسمت أمري فأنا فعلاً أريد أن أرى وجه السارق الريشة، لا يعرف ملامحه سوى تلك الفتاة الصغيرة وأنا أريد أن أكون من القلائل الذين يعرفون من هو الشاب الذي تحدثت عنه الصحافة لوقت طويل

-حسناً، در ببطء

وقف هو ودار بالفعل ببطء والتقت عيناه الزرقاوان بعيني

على الفور ازدادت ابتسامته وقال

-يا إلهي أنت بالفعل فائقة الجمال، أعني عرفت هذا من صوتك لكنك حتى أجمل مما تخيلت

أحرجني بإطرائه الدسم لي فاحمرت وجنتاي على الفور، ونظرت إلى النافذة فقلت له

-ألم يحن موعد رحيلك؟

وعدت لأنظر إلى عينيه التي رأيت بها زرقة البحر وأحسست بقشعريرة لذيذة في كامل جسدي، قال هو - ألا يمكنني أن أقدم لك فطور متواضع لأشكرك على إيوائي الليلة؟ وعدم تركي لأموت بين الثلوج في الخارج، كما أنني جائع جداً

لم يبقى شيئاً مجنون لم أفعله الليلة

نويت الانتحار

أويت لصاً ووالداي في الخارج

لم لا نكمل حفلة الجنون هذه؟ ليذهب الجميع إلى الجحيم.

أجبته وأنا متشوقة لما سيعد لي من طعام فهو كما سمعت من الأخبار طباخ بذوق رفيع.

-لم لا؟

فتح الثلاجة وسألني معقود الحاجبين

-هل تحبين الأومليت والشاي بنكهة النعناع؟

-نعم، لكن لا أحب الفلفل أبداً

أعاد الفلفل إلى الثلاجة وقال

-من الجيد أنك أخبرتني فأنا لا أريد أن أعيد غلطتي مع أميرة الصغيرة.

يقطع ويقلب ويغلي الماء وهو يتحدث بتواصل

-هل تعلمين أنني سأعمل محامياً في المستقبل القريب؟

يا السخرية. أليس كذلك؟

اللص يعمل محامياً، كل ليلة أقتحم بها منزلاً لأسرقه، أضحك في نفسي على نفسي، فوالداي توفيا وأنا أدرس السنة الأولى في الجامعة، حادث سيارة قتلهما وترك أختي الصغرى مقعدة، بهذه السهولة فقدت كل شيء المنزل، الجامعة، الحياة العائلية التي أحببتها.

انتهى من عمله ورتب المائدة الصغيرة طبقين من الأومليت الشهي وكأسان ساخنان من الشاي بنكهة النعناع العطرية، وحزن عميق داخل شاب فتيّ

حزنت فعلا من أجله واستحقرت نفسي، ها أنا أعيش بين والداي وسط قصري لا مسؤوليات لدي سوى نفسي ودراستي، وهو قلبت حياته رأساً على عقب ومازال بإمكانه أن يضحك فتاة انتحارية.

نفضت أفكاري القديمة من رأسي وجلست على الكرسي المقابل له ومسدسي بيدي اليسرى، أكل هو القليل من الأومليت ورشفت أنا من الشاي الساخن، بضع ثوان وأشعر بقوة هائلة تدفعني لإغلاق عيناي وغياب عقلي أرى السارق يتحرك سريعاً لجهتي ويحميني من الارتطام على الأرض أشعر بأنفاسه الحارة على وجهي وهو يقول لي (أسف ، لا يمكنني المخاطرة) وغبت إلى عالم الأحلام.

الفصل الرابع

استيقظت وأنا في المستشفى أرقد على السرير الأبيض، تعجبت من موقعي فأنا لا أذكر بأنني ابتلعت الحبوب المنومة أو قطعت عروقي أو حتى أطلقت على نفسي بالرصاص.

والدتي تبكي بجانبي، ووالدي يقف بجانب الباب بكآبة ملأت وجهه.

-ماذا حدث؟

انتبهت والدتي لي فاحتضنتني وهي تقول بصوتها الباكي

-لم تتركيني وترحلين؟ لم لم تخبرين أحداً ليساعدك، حمداً لله على وجودك معنا.

احتضنني والدي أيضاً لكنه لم يقل شيئاً علمت أنه كلمة واحدة منه ستفجر به دموعه المكتومة.

ابتعدت عنهما بلطف وقلت

-لكنني لم أحاول الانتحار.

قالت والدتي

-قرأنا رسالتك، ورأينا كل شيء، لا يوجد شيء تخجلين منه، أنا ووالدك رتبنا لك موعداً مع طبيبة نفسية أنها جيدة، أفتحي لها قلبك أخبريها بكل شيء وبإذن الله ستشعرين بتحسن.

أكمل والدي

-كل شيء سيكون بخير يا حبيبتي.

تذكرت السارق الريشة أنه هو هذه هي شيمه، يتدخل فيما لا يعنيه، بقيت طوال اليوم أنكر الانتحار لكنه زرع الأدلة بذكاء.

عدت إلى منزلي ووالداي ملاصقين لي، رميا كل حبل في المنزل بما فيها أحزمتي وجواربي الطويلة، ووضعا المسدس في الخزانة وغيرا الرقم السري.

مر أسبوع وأنا أنتظر عودته حتى أني لم أعرف أسمه (السارق الريشة) لم أعد أعلم هل أنا مشتاقة له أم غاضبة منه؟ فبسببه والدتي تركت عملها (أستاذة في الجامعة) وبقيت في المنزل لترعاني وتراقبني، ووالدي أصبح يعود مبكراً جداً من عمله معظم الأيام الساعة الرابعة عصراً ليطمئن علي ومن ثم يكمل ساعة أخرى لمراجعة أوراق شركته في مجال المقاولات، لنجتمع الثلاثة على العشاء،نعم أصبحت عائلتي أكثر قرباً من قبل لكنهما يخنقانني بقربهما الزائد، فيفتحان عليّ الباب كل نصف ساعة بالنهار وكل ثلاث ساعات في المساء، سئمت البقاء في المنزل فتناولت الهاتف واتصلت بصديقتي الوحيدة، لورا فتاة محبوبة ولطيفة، يمكنني القول أنها تعيش في المركز التجاري

-ألو لورا ..أنها أنا إيفا

لورا والتلهف يسبق كلماتها

-عزيزتي إيفا اشتقت لك كثيراً، أين كنت يا فتاة؟

-في المنزل لكنني أود الخروج الآن

-لنخرج الآن سأمر عليك

لورا المتعجلة إلى المركز التجاري كعادتها، أحتاج للخروج من هنا .

-نعم أرجوك

ولأول مرة منذ شهور ارتدي ملابس الخروج، اتسعت ملابسي لا بأس حزام واحد سيحل المشكلة.

أنزل إلى الدور الأرضي لأرى والدي ونظراتهم تجمدت عليّ، فرح وراحة وأمان ارتسمت على محياهم، قطعت الصمت

-سأخرج إلى المجمع التجاري

وقف والدي وضمني إليه بلهفة وأخرج محفظته وقال

-كم تريدين حبيبتي؟

أخرج ألف ثم ألفان ثم ثلاثة.

أخذتها منه كي لا يبقي محفظته فارغة، وقلت

-هذه ستكفي حتى الشهر القادم.

احتضنتني والدتي بدورها

-استمتعي بوقتك، وحبيبتي اعتني بنفسك.

انسحبت من أحضانها ببطء مبتسمة لهما، خرجت من المنزل خوفاً من سكب المزيد من الدموع القلقة، جلست على الدرجة الأولى أنتظر لورا، أرى ظلاً يتحرك بجانب شجرة الكرز

هل هو؟ وقفت وخطوت نحوه خلسة؟ ما زال الظل ساكن وصلت للشجرة وشعرت

برغبة عارمة في أن يكون هو

عددت في نفسي ، واحد ، اثنان ، ثلاثة

-أحببت شجرتكم.

قالها بصوت واثق للغاية، تعديت الشجرة وجدته يقف متكأ على الشجرة ويداه مدسوستان داخل جيوب بنطاله الأسود، وقدمه الأخرى تستند على الشجرة ، يغطي عيناه بنظارة شمسية ماركة راي بان، لم أنطق بكلمة أحسست أمامه بضعفي وأنوثتي شعرت بقلبي ينبض بقوة داخل صدري، أحببت هذا الشعور للغاية، ألتفت إلي قائلاً

-كانت لدي شجرة مثلها في منزلي القديم.

تذكرت ما فعله بي فسألته غاضبة

-أنت زيفت انتحاري.

قال يحاول تهدئتي

-أنا أسف، خفت أن أخسرك.

-أنت لا تعرفني حتى.

خلع نظارته بيده اليمنى وطبقها ثم علقها بقميصه الأصفر، لتظهر عيناه الساحرتان

-اشتقت إليك إيفا، أرجوك سامحيني.

لعله يعلم تأثير عيناه على الفتيات لهذا أظهرهما إلي، نعم ها أنا أضعف له شيئاً فشيئاً ، صوت سيارة يقترب يعلن وصول لورا إلي،فقلت له

- علي الذهاب

وصلت لورا وأوقفت سيارتها المكشوفة أمام مدخل الحديقة الأمامية أشارت إلي بيدها تنادي بإسمي.

تركته هناك وأكملت طريقي نحوها، لحقني وأمسك بيدي ليديرني إليه وعيناه تتركز علي بإصرار قائلاً

- على الأقل دعيني أشرح لك الأمر، سأعود لك الليلة، أريد فرصة.

بقيت صامتة للحظات وعيناه تترجاني لأعطه ما يريد

-حسناً

تركته وأنا سعيدة بعودته لي، نعم قد أكون غاضبة منه قليلاً لكنني أشتاق له بشدة.

تعمدت المشي بدلال أمامه، أردت سلب لبه كما سلب لي قلبي.

وقف هو خلفي وأنا أدخل سيارة صديقتي، شعرت بابتسامتي المنتصرة ترتسم على شفتي.

سمعت صديقتي تتحدث بخبث وهي تتفحصه بنظراتها الجريئة

-من هو هذا الشاب

وضعت حزام الأمان وقلت لها بخبث مماثل

-هو لا يخصك

وانطلقنا إلى رحلة ممتعة من التسوق الباذخ

عدت إلى منزلي بأكياس وأكياس من الملابس الجديدة، لتناسب مقاسي الجديد

ولأبدو فاتنة من أجل السارق الريشة، الساعة الثامنة مساءاً، استقبلني والداي بحفاوة، وساعداني للصعود بملابسي الجديدة إلى غرفتي، عرضت والدتي علي مساعدتي في تعليق ملابسي الجديدة، تقول وهي تخرج ملابسي وتعلقها في داخل الخزانة

-أنا سعيدة من أجلك حبيبتي، ها أنت تتسوقين كالسابق، وتستمتعين بوقتك

أجبتها وأنا أخرج بيجامة خاصة اخترتها لليلة حتى أبدو جميلة لسارقي المفضل

-أنا بخير يا أمي، لا تقلقي علي

انتبهت والدتي على كثرة البجائم المنوعة التي اشتريتها فقالت

-غريبة!! هذه أول مرة أراك تشتري هكذا كمية من البجائم

ارتبكت وخفت من أن تراقبني الليلة أجبتها

-أحب أن أنام مرفهة ، الطبيبة ماجي نصحتني بهذا

بدت الراحة على وجه والدتي وابتسمت لي وهي تقبل جبيني، انتهينا من ترتيب مشترياتي فغادرت والدتي مترددة وكأنها تريد البقاء أكثر هنا، أغلقت الباب خلفها وتناولت بجامتي الخاصة لهذه الأمسية من القطن المصري، بنطال رمادي مزيّن بنقط وردية كبيرة وقميص وردي مزيّن بخربشات سوداء عصرية، أحببتها للغاية أرتديها على عجل ووضعت كحل بسيط على عيناي ومرطب شفاه بطعم الكرز ولونه، قربت منى معطفي، تحسباً للظروف قد احتاجه، مرت الساعات بطيئة وأنا أنتظره، لم أتوقع أن يتأخر هكذا، فغلبني نعاسي.

الفصل الخامس

دخل إلى غرفتها الواسعة بعد أنا تسلق العريش الخشبي المخصص لنبات الياسمين المتسلق، كانت نائمة في سلام بوجه أكثر إشراقاً من السابق، أقترب منها ببطء، وتمعن النظر إلى وجنتيها الورديتان وشعرها الفاحم السواد ومن ثم شفتيها المكتزتين صحة وشباباً، أراد أن يقبلها لكنه تراجع وتذكر حدوده، هو سارق أموال لا سارق قبلات، لذا فقد هز كتفها بهدوء لكنها فزعت، سرعان ما فتحت عيناها فهي لم ترى سوى ظلاً لشاباً يقف أمامها، همت بالصراخ لكنه كمم فمها بيده اليمنى وهمس في أذنها

-أنه أنا جيمي، هل تذكرين؟

هدأت إيفا و أنزل يده من على فمها وقالت بحزم

-أنت تأخرت

قال لها معتذراً

-آسف، أنها أختي لم تنم مبكراً

قالت بابتسامة جذابة

-يا لك من أخ جيد

أبتسم بارتياح

-أنا أحاول

قالت بحماس بعد أن ارتدت معطفها الأحمر الذي يصل طوله إلى ركبتيها

-أين سنذهب؟

-لدي تلك البقعة السرية المميزة في الحديقة العامة ستحبينها

ابتسمت له بدلال ونزلت من نافذتها إلى الأسفل بمهارة من تسللت المئات من المرات من نفس الطريق.

نزل هو بعدها لينسحبا من حديقة منزلها الأمامية

-حسناً يبدو أنك تمتلكين مهارة في الهروب من المنزل

ردت عليه وهي تسابقه الخطى

-أحب الخروج في المساء أنه أكثر خصوصية بالنسبة لي، كما أنه الوقت الذي تزدهر به أعمالك المتعة

-أنا لا أسرق للمتعة أنا أسرق فقط لأؤمن مستقبلي ومستقبل أختي

قالت بخبث أنثوي

-كانت لدي صديقة تسرق للمتعة، أعتقد بأنها سرقت الكثير من مقتنياتي أنا وصديقاتي

وقفت أمام منزل بثلاث طوابق وأشارت إلى العلية

-أنه في صندوق أسود في العلية ، علينا أن نحظر الصندوق بأكمله

قال وهو يصطنع الحزن

-لقد حطمت قلبي، ألهذا السبب وافقت على الخروج معي؟

ردت عليه بدلال

-أنها طريقتي في مسامحتك

ألقى على المنزل نظرة فاحصة من بعيد

-إذا هل تريدين مني أن أسرق زميلاً في الصنعة؟ هذا ضد قانون الحواري

أشاحت عنه مبتعدة

-إذا سأعود إلى منزلي

لم يتوقع أن تغضب بهذه السرعة لذا استوقفها ممسكاً بكتفيها وأدارها إليه بنعومة

-انتظري أنا لم أقل بأني لن أفعلها

ابتسمت بدلال ولمحة حزن تكسو عيناها

-شكراً جيمي، تلك اللصة سرقت خاتم أهدتني جدتي إياه، أردت أن أسترجعه منذ أن ماتت جدتي

اتسعت ابتسامته بحماس

-إذا هيا لنسرق منزلاً

شعرت إيفا بالتوتر يتسرب سريعاً إلى جسدها لترتجف يداها وهي تعبر الممر بصحبة جيمي الممسك بيدها الناعمة كقطعة زبدة، نظر إليها وقبل يدها بحنان

-لا تقلقي لن يقبض علينا هنا فأنا ماهر في عملي

ابتسمت تجامله تصطنع الشجاعة أمامه

-أنا لست قلقلة

أكملت وهي تشير إلى نافذة العلية

-أخيها الصغير أخبرني بأنها تحتفظ به بداخل خزانة خشبية قديمة

تفحص جيمي أول نافذة تصادفه ووجد أنها سهلة الفتح أخرج عدته الصغيرة من جيبه الأيمن وبدأ في عمله وإيفا تراقب الطريق خوفاً من أن يراهم أحد، صدر صوت تكة خافتة لتعلن عن نجاحه ونظر إليها بجدية

-هل تريدين أن تأتين معي أم فقط أحضرها لك؟

ابتسمت بحماس وهرمون الأدرينالين يندفع في عروقها

-نعم أريد الذهاب معك

عبر هو أولاً من النافذة ثم ساعدها على الدخول إلى المنزل، كان المنزل يعمه الهدوء والظلام، انتظر لبضع ثوان حتى أعتاد بصره على الظلام وبدأ يعبر طريقه إلى الدرج بخفة تخلفه إيفا بصمت، وصلا سريعاً للعلية والتي كانت أشد ظلاماً من بقية المنزل، أخرج هاتفه من جيبه وضغط زر الإنارة، لتنير العلية أمسكت إيفا يده بحماس وأشارت إلى الخزانة الخشبية القديمة، عبرا إليها بخطوات بطيئة ثابتة، فتشا الأدراج بعناية حتى وصلا إلى الدرج الرابع فوجدا داخله صندوق أسود صغير أخذته إيفا وفتحته

-يا إلهي أنه ملئ بالخواتم كانت تسرق من الجميع

وضعت الصندوق الصغير في جيبها وأخرجت من جيبها الأخر قلادة ذهبية ووضعتها محل الصندوق الأسود وقالت لجيمي

-سرقت هذا منها عندما علمت بأمرها، سيعلمها هذا درساً مفيداً

رد عليها جيمي منبهرا

-رداً جيداً، هيا لنغادر

تسللا نزولاً هذه المرة، ونشوة الانتصار تلمع في عيناها، ما زالت تمتلك ابتسامتها الشقية، أوقفها جيمي بيده اليسرى فقد رأى شيئا يتحرك، انتابها القلق والخوف وأمسكت بيده تلتمس الاطمئنان والثقة التي تبدوان عليه، همس في إذنها

-لعله والدها يزور دورة المياة.

ازداد خوف إيفا على عكس جيمي، كانا في الدور الأول يختبئان في خزانة التموينات بجانب المطبخ غرفة صغيرة مليئة بأنواع المربات والأجبان، شعر بتراجع إيفا إلى الوراء فأحاطها بيده خوفاً من أن تكسر شيئاً فيكشف أمرهما

-اهدئي سيعود إلى النوم، كلهم يفعلون ذلك.

إلا أنهما سمعا صوت خطوات ثقيلة تقترب من أعلى الدرج، تتسارع نبضات قلب إيفا مع كل خطوة تستمع لها، تخيلت منظرهما مقيدان داخل سيارة الشرطة متجهان إلى الزنزانة، لذا تراجعت بقوة في حركة دفاعية لتسحب معها جيمي ويصطدمان معاً بمجموعة من المرطبانات المليئة بالمربى، كان على جيمي أن يخطط بسرعة البرق فتوصل بأن أفضل وسيلة للهروب الآن بدون تأخير، فمع كل ثانية تمر ترتفع نسبة دخوله السجن وحرمانه من أخته لسنين عديدة لذا أمسك بيد إيفا وانطلق صارخاً

-لنخرج من هنا

كانت الخطوات تقترب منهما فسرعان ما فتح الباب رأى ظل رجلاً بديناً قصيراً فدفعه بكل ما يمتلك من قوة وسحب إيفا هارباً، قطعا الخمسة أمتار التي تفصلهما من النافذة المفتوحة، ساعد إيفا على الخروج من النافذة وخرج بعدها، انطلقا كصاروخين هاربان من مصير السجن كان يتجه إلى منزل إيفا ليختبئا فيه وإيفا تتبعه بلا تفكير

حتى وصلا إلى المنزل.

دخلا الحديقة متسللان ينهجان من التعب، جلست إيفا بجانب العريش لتلتقط أنفاسها لكن جيمي أوقفها قائلاً بحزم

-ليس بعد علينا الدخول للمنزل وإلا قبض علينا هنا سيمتلئ الحي بسيارات الشرطة في دقيقتين

تأوهت إيفا متألمة لكنها رضخت لرغبة جيمي وتسلقت العريش ومن ثم تبعها جيمي، دخلا الغرفة وأقفل النافذة والستائر.

والتفت إلى إيفا

-الآن يمكننا التقاط أنفاسنا

جلسا بجانب بعضيهما يكتمان ضحكاتهما المفعمة بالأدرينالين.

قالت

-إذن، هكذا نسرق منزلاً؟

-لا هكذا يقبض علينا لسرقة منزل، في العادة تجري الأمور على ما يرام

ضربته إيفا بخفة على كتفه

-كنت مرعوبة بشدة، لم أقصد أن أكسر المرطبانات، أريد أن أحتفل بأول عملية سرقة لي سأصنع كوبان من الكاكاو الساخن، سأعود بعد قليل

غادرت على أطراف أصابعها خوفاً من أن توقظ والديها، تأمل غرفتها مستغلاً نور البدر الخافت، تبدو من غرفتها فتاة مدللة من الجميع لديها أحدث الأجهزة وبجانب

سريرها صورها في الإجازات خارج الدولة هذه في هاواي وتلك في سفاري إفريقيا والأخيرة في باريس، لم تكن عائلته بهذا الثراء لكنهم كانوا يستمتعون بالرفاهية المادية نوعاً ما، فكانوا يمضون إجازاتهم السنوية يتنقلون بين الولايات المختلفة، وتمكن والداه من أن يخزنان مبلغاً مالياً جيداً يكفل له ولأخته دخول جامعة رفيعة المستوى، طارت أفكاره وذكرياته مع دخول إيفا وبيدها كأسان خزفيان يحتويان شراب الكاكاو الساخن، ناولته أحد الكأسين

-انتبه إنه ساخن

ابتسم لها وهو يمد يده ليأخذ الكأس

-أتمنى ألا تمانعي بقائي هنا حتى الصباح

جلست بجانبه وترتشف بحذر من كأسها ثم قالت

-بالطبع جيمي أنت لا تعلم كم أنا ممتنة لك

أخرجت خاتم من البلاتين المرصع بياقوتة دموية اللون من العلبة السوداء وارتده

-هذا الخاتم يعني لي الكثير ، عندما اختفى شعرت وكأنني خيبت ظن جدتي، لكنه معي الآن وهذا يجعلني سعيدة

مرت لحظات من الصمت بينهما قطعها جيمي قائلاً بابتسامة باهتة

-غداً موعد عملية أختي، أكره أن أنتظر في المشفى لوحدي

ثم نظر إلى إيفا والوهن يتخلل عيناه

-هلّا أتيتِ لمساندتي؟

شدت إيفا على يده وقالت بصوت يملؤه الدعم

-بالطبع جيمي سأكون هناك

أشاح جيمي بوجهه عن إيفا وقال بصوت مخنوق

-قبل عدة سنوات وقع حادث سير توفّي والداي على الفور وبقيت لورا في غيبوبة أسبوع كامل، كنت لوحدي في المشفى، أمضيت أيامي بجانبها لعلها تصحو، كرهت كل ثانية تبقيها بعيدة عني في الظلام، حتى أنعم الله علي باستيقاظها، كنت فرحاً جداً لدرجة أنني نسيت موت والداي، لكنها فقدت قدرتها على المشي ورفض التأمين إجراء العملية، قالوا بأنها فقط تحتاج لعلاج طبيعي، مشوار مؤلم وطويل وبلا جدوى لذا تركت الجامعة وامتهنت السرقة لأجمع تكاليف العملية.

زفر ليخرج همومه وآلامه ثم أكمل

-والآن أكتمل المبلغ وسلمتهم إياه، وكلي أمل في أن تنجح عملية لورا وتكتمل حياتها، أريدها أن تعيش طفولتها الكاملة

ابتسمت له إيفا وهي ما تزال تشد على يده

-إذا أنت يا جيمي لمست حياتها كما لمست حياتي أنا متأكدة بأنها سعيدة

تلاقت عيناهما بصمت لذيذ ليعلم الاثنان بأنهما قد غرقا في بحر العشق.

الفصل السادس

يجلس على كرسي في ممر المستشفى، قدمه ترتطم بأرضية الممر في سرعة جنونية منكساً رأسه إلى الأسفل ويداه تسندان رأسه وتغطيان وجهه القلق، صوت خطواتها المتسارعة يعلو داخل أذنيه حتى رفع رأسه ورآها تتقدم له من بعيد، جميلة جداً هي ارتدت فستاناً رصاصي اللون قصير بأطراف سوداء، شعرها أسود اللون تلفه داخل بعضه ليكون كعكة صغيرة في مؤخرة رأسها، أنيقة كعارضة أزياء

ابتسم بإعجاب قائلاً

- تبدين أنيقة للغاية

قالت بتوتر

- شكراً

جلست بجانبه فأمسك بيدها وقبلها بحنان

- شكراً لأنك أتيت

احمرت وجنتا إيفا وهي تتعمق في عينا جيمي الساحرتان، أرادت أن تصرخ بحبها له، أن تعلن له كم هي تحبه لكنها أشاحت بوجهها عنه في خجل.

مرت الساعات الطوال مقلقة، عشرات من أكواب القهوة قد شربا، والعديد من الأسئلة يلقيها على كل من يخرج من غرفة العمليات، أخبره الجراح في السابق أن العملية قد تأخذ إثنتا عشرة ساعة لكن الآن قد مرت أربعة عشرة ساعة، طمأنته الممرضة بأن هذا التأخير يحدث في معظم الأحيان وأنه لا يوجد مصوغ للقلق.

سحبته إيفا إلى غرفة هادئة واسعة في محاولة منها ليهدأ قليلاً، كانت غرفة انتظار مرفهة بالعديد من الكنبات الوثيرة، الإضاءة الخافتة تخلق جواً هادئاً، جلس باستقامة في الدقائق الأولى لكنه بدأ يسترخي شيئا فشيء مع صوت إيفا الناعم، فبدأ يسند ظهره على الكنبة المريحة ويسبل عيناه بكسل وإيفا تحكي له قصة مملة اختلقتها فقط لتجبره على النوم وتكللت محاولتها بالنجاح، كانت تعلم بأن النوم سيريحه من ساعة أو ساعتان من القلق.

يسمع همسها له

- جيمي استيقظ، لورا بخير العملية ناجحة

لم يستوعب في البداية ما سمع لكنها أعادت الجملة

- لورا بخير

إيفا تبتسم مسرورة لنقل الخبر السعيد إليه.

ظل بضع ثواني مشدوهاً بالخبر لكنه أقنع نفسه بأن ما يسمعه ليس هذيان بل الحقيقة، عانق إيفا بكل ما يمتلك من قوى قائلاً

- شكراً إيفا، شكراً

بادلته إيفا العناق وربتت بحنان على ظهره

-علينا أن نذهب، لورا تنتظرنا

وقف الاثنان وعبرا الممرات وهما متشابكي الأيدي كحبيبَين واقعين في الحب حتى النخاع، وبخطوات سريعة دخلا غرفة إميلي، كانت تستلقي على السرير الأبيض وجهها البريء يشع نوراً ووجنتاها تتورد حمرة

تجلس بجانبها ممرضة شابة ترتب لها شعرها البني القصير وتزيحه عن عيناها الواسعتان العسليتان

صوتها الطفولي يعلو بمرح

- هل أستطيع المشي الآن؟

تجيبها الممرضة بابتسامة واسعة

- علينا أولا القيام بالكثير من التمارين وفي الوقت المناسب ستخطين إلى أي مكان تريدين

دخل جيمي فرحاً وعانق أخته الصغرى ذات السبعة أعوام ثم سألها

-هل أنت بخير؟

قالت لورا بحماس

- نعم أنا بخير والطبيب دغدغ قدماي بالقلم وشعرت به، قالوا بأنني أستطيع المشي

قال جيمي بحماس مماثل

- والآن ستسابقينني كالعادة

نادى الطبيب جيمي ومشيا سوياً إلى أخر الممر فيما جلست إيفا بجانب لورا لتعرفها على نفسها.

في الممر بعيداً عن غرفة لورا تعالى صوت جيمي غاضباً

- أخبرتك بأنني سأحضر لك بقية الأموال فقط دعها هنا حتى أحضرها لك

قال الطبيب متعاطفاً لوضع جيمي

- إنها سياسة المستشفى عليك أن تدفع قيمة العلاج الطبيعي لفترة شهر مقدماً

جيمي محاولاً التماسك قدر ما يستطيع

- أعطني فقط بضعة أيام وسأوفر لك ما تريد

الطبيب

- اسمع يا جيمي هناك عيادات أرخص بكثير من هنا، نعم قد تأخذ لورا وقتاً أطول لكنها في النهاية ستمشي أنا أضمن لك هذا و...

قاطعه جيمي حانقاً

- لا فقط الأفضل للورا، أمهلني ثلاثة أيام وسأحضر لكم ما تريدون

ثم غادر متجاهلاً ما يخبره الطبيب عن سياسة المستشفى.

دخل إلى غرفة لورا وجلس بجانب إيفا كانت إيفا تمازح لورا ولورا تبتسم بسعادة وكل عشرة دقائق تكرر جملتها بحماس

- لا أستطيع الانتظار حتى أمشي

كان يصطنع السعادة، أكبر همه إنه قد لا يحقق لها هذا الحلم بأسرع وقت انتظر حتى غربت الشمس وغابت لورا في نوم عميق همس في إذن إيفا برغبته في الحديث معها خارج الغرفة.

خرجا بهدوء خوفاً من أن يوقظا الصغيرة لورا

أمسك بيدا إيفا وقال بابتسامة متوترة

- علي أن أحضر بعض المال للمستشفى قد أغيب لعدة أيام

قالت إيفا وهي تشد على يديه

– ليس عليك أن تسرق.. أستطيع أن أحادث والدي، إذا ذرفتُ له دمعة أو اثنتين سيتكفل بمصاريف لورا.

ضمها إليه وهو يعلم بأنه سيشتاق لها

– أنا آسف، فأنا لا أخذ مالاً من فتاة أعشقها

خجلت إيفا من تصريح جيمي لها، فصمتت لكن وجهها فضح حبها هي الأخرى له، فاحمرت وجنتيها، أبتعد عنها قليلاً لأخذ نظرة طويلة إلى وجهها ثم قُبّل جبهتها وقال قبل أن يغادر

– سأعود سريعاً

الفصل السابع

رمقت إيفا كأس الصودا الفارغ بنظرة حزينة ثم رفعت بصرها لإميلي وأكملت

-لكنه تأخر وحين مرت ثلاثة أيام سارعت المستشفى لإخراج لورا من عندهم لذا اتصلت بوالدي وبكيت له، خوفه علي أرغمه على التكفل بالتكاليف كاملة، وقلت في نفسي سأتجاهل غضب جيمي، لكنه أيضاً لم يعد ليغضب فانتابني القلق عليه هو يعلم بأن لورا ستطرد من المستشفى لا يمكن أن يتجاهل أمراً كهذا، فذهبت إلى الشرطة وأخبرتهم بكل شيء وحين أخبرتهم بأنه قال سيغيب لعدة أيام تجاهلوا بلاغي بالكامل، غضبت وعدت إلى لورا لأخبرها بأن كل شيء على ما يرام، المسكينة كانت تعلم بأن حدثٌ سيء قد حصل لجيمي كانت قلقة ووجها قد شحب، لكن بعد عدة أيام قد وُجِد جيمي في منزل ما، قاس من العذاب الشيء الكثير، كان يبعد عنا بضعة طوابق عندما علمنا بأمره.

أخذت لورا معي لرؤيته وعندما دخلنا إلى غرفته التي يحرسها شرطي يجلس عن يمين الباب، كان نائماً في سلام، قد خسر الكثير من الدماء ودخل في غيبوبة، هذا ما سمعناه من الأطباء، مر أسبوع كامل كنا خلالها نزوره كل يوم من الساعة الرابعة عصراً وحتى السادسة مساءاً، أعجبت بقوة لورا لم تكن خائفة على الإطلاق فقد كانت تحدثه عن يومها في العلاج الطبيعي وتتذمر له كيف أنه يأخذ منها كل ساعات الصباح، على عكسي أنا التي كنت أذرف الدموع فور دخولي إليه وكلما حاولت الحديث إليه اختنق صوتي فلا يقوى على الخروج من حنجرتي فقد كانت روحه متخمة بالطاقة وحضوره ينعش الأجواء أما الآن يستلقي هنا بلا حراك أقرب منه إلى جثة هامدة من

شاب بكامل صحته.

وفي اليوم الثامن دخلنا إلى غرفته وما إن نلبث أن نبقى خمس دقائق حتى أستيقظ جيمي وفتح عيناه، لم يبدو في كامل وعيه لكننا فرحنا بعودته إلينا، ناديت الممرضات فأمتلئت الغرفة بالأطباء مهنئينا بعودته إلينا وبعدها بنصف ساعة حضر المحققون وطلبوا من الجميع إخلاء الغرفة، وقبل أن يقفل الباب رأيته ينظر إليّ أستطيع أن أحس باشتياقه لنا واشتياقي له أريد الدخول إلى هناك والبقاء بجانبه، لكنها دقائق معدودة ومن ثم سأكون بجانبه أريد أن أرد له الجميل أن أساعده على تخطي هذه المرحلة من حياته.

كنت أجلس على كراسي الانتظار ولورا تجلس أمامي في كرسيها المتحرك تسألني عدة مرات بقلق

- يبدو بخير هل تظنين أنه بخير؟

وأجيبها بنفس الإجابة

- بالطبع سيكون بخير أنه جيمي

لكننا سمعنا أصوات الصراخ والعراك تعلو بداخل الغرفة إنه جيمي يهدد بقتل أحدهم، لا يبدو طبيعياً بالمرة، شعرت بقلبي يتقلص داخل صدري من شدة الخوف.

كان صوته هائجاً لم يكن صوت جيمي الذي نعرفه أفزعتني لورا وهي تقبض على يدي باكية

- ما الذي يحدث له ؟

كانت مرعوبة تلك الصغيرة لكنني كنت أشاركها مشاعرها، فلم أجبها عاد الأطباء

بسرعة إلى الغرفة وحقنوا جيمي بالمهدئات حتى عاد إلى نومه، عاد المحققان إلينا وأخذا لورا معهما قالا بأنهما في خطر وأنهما سيجدان لهما منزلا آمناً.

(الحاضر)

طلبت إميلي كأس من القهوة الساخنة وسألت إيفا

- وكيف وجدتما بعضكما ؟

ردت إيفا وهي ترتدي حذائها

- جيمي يريد أن يخبرك بهذه القصة، عزيزتي إميلي سأغادر الآن لكنك لن تنسيني من نسخة موقعة من هذه الرواية.

أشعلت عبارة إيفا الحماس في قلب إميلي فقالت بحماس

- بالطبع سأفعل.

الفصل الثامن

في اليوم الثاني يجلس جيمي منتظراً إميلي على صوفا مريحة حمراء اللون بداخل مقهى هادئ، تميزه إضاءة منخفضة ويكاد يخلو من الزبائن.

دخلت إميلي تحمل حقيبة سوداء، ترتدي قميص أحمر وبنطال جينز أزرق، أدارت عيناها في المكان عدة ثوان حتى وجدت جيمي واتجهت له مباشرة

- أين وجدت هذا المكان؟ هل يمكن أن يكون أكثر ظلاماً؟

رد جيمي

-سأخبرك بأسوأ كوابيسي وعليّ أن أشعر بالراحة حتى أفعل هذا

ندمت إميلي على كلامها وقالت

-أعتذر جيمي لم أكن أقصد

طلبت كوباً كبير من القهوة وأخرجت جهاز التسجيل وضعته على طاولة القهوة

- يمكنك أن تبدأ

(الماضي)

كانت الليلة التي نجحت بها عملية لورا، ودعت إيفا وخرجت من المستشفى بنية سرقة رجل عجوز لطالما انتشرت الشائعات عن مدى ثراءه وعن وجود كنزاً في منزله، بدأت بالبحث عن أي شيء في غرفته وجدتها نظيفة مرتبة ليست مكلفة أبداً لكنها متناسقة الأثاث، علمت هذا لأن ليلتها كانت مقمرة فنور البدر غمر المنزل بكامله

فهو من تلك المنازل ذا النوافذ الهائلة تمتد بامتداد السقف، بحثت عن الأموال قلبت الثياب المنظمة وفتحت الأدراج المقفلة وجدت الكثير من الصور المبهمة، لم أهتم لأني مللت من كشف أسرار ضحاياي والأشياء الغريبة التي يحتفظون بها، فهناك من له عشيقة سرية يخبئ ذكرياته المحرمة داخل ظلمة درجه، صورهما ورسائلها المعطرة وخصلة من شعرها الذهبي، وتلك التي تحتفظ بكل تذكرة في حياتها في صندوق كبير مقفل الآلاف من بقايا التذاكر، لم أعد اهتم بأسرارهم فأنا فقط احتاج إلى أموالهم، ربما لو أمسكت بصورة واحدة مما لمستهم وقربتها من نور القمر لعلمت وقتها إي نوع من الأشخاص هو وأي هواية مريضة يمارسها هو في ذاك القبو الملعون.

ابتسم بألم وهو يكمل

-كنت هربت من هناك وأبلغت الشرطة بما رأيت، لكنت نجوت تلك الليلة ولحكيت القصة وكأنها مأساة شخص آخر مأساة جودي أو فيليب، وقف قليلاً وبدأت شفاهه بالارتجاف وأكمل، لكنه قدري وهي قصتي لأحكيها، كانت الإشاعات تتحدث عن ثروة يمتلكها العجوز يخبئها في غرفته أو في قبوه، قلبت الغرفة رأساً على عقب بحثاً عن ما قد يكون ثميناً لكن لا شيء كرهت أن أعود خاليّ اليدين، فنزلت إلى الدور الأخير ووقفت أمام باب القبو متأهباً لما قد أجده في الداخل الأقفال الخمسة المعلقة على الباب أثبتت لي أن العجوز يخبئ شيئاً ما يعتقد هو بأهميته، وإن كان مهماً للسيد العجوز فهو بالطبع أكثر أهمية بالنسبة لي، أخرجت أدواتي من محفظتي الجلدية الصغيرة وبدأت بالعمل، كرهت الثلاث ساعات من العمل المتواصل فكرت أكثر من مرة أن أترك الأقفال وأن أعود إلى أختي إلى عائلتي الوحيدة وفي كل مرة أحث نفسي على إكمال ما بدأته وأبني في رأسي أحلام واعدة تمنيت كثيراً أن أجد ثروة تمكننا من بدأ حياة جديدة تخيلت طلباً رومانسياً للزواج من ايفا، ومنزلاً دافئاً نصنع به ذكريات سعيدة،

وشهادة محاماة افتخر بها معلقة على جدار مكتبي، لكن عندما فتحت ذلك الباب الحديدي كل تلك الأحلام انهارت في داخلي.

الفصل التاسع

دخلت إلى غرفة بإضاءة صفراء تتدلى من على سقف القبو الرطب، رأيت شابان وفتاة كل منهم مثبت على لوح خشبي يجبرهم على الوقوف ثُبتت أطرافهم بسلاسل من حديد، رائحة اللحم المحروق والجراح المتعفنة فاحت إلى أنفي لترهبني، جسدي كله يرجف بشدة شعرت برغبة كبيرة في التقيؤ، أحد الشبان بدا مصاباً بشدة، دماؤه ترسم خطوطاً رأسية على جسده، البعض منها بنية اللون قديمة الأثر والبعض الآخر حمراء حديثة، التاريخ الشاب الآخر والفتاة لا يبدو عليهما شدة التأثر كصاحبها، رفعا رأسيهما ونظرا إلي، رأيت نظرة أنفس مرعوبة لثوان وعندما دققا في النظر إلى وجهي تحولت نظراتهم إلى أمل أخير، صاح بي الشاب ليخرجني من حالة ذهولي

- أنجدنا بسرعة، أخرجنا من هنا أرجوك

تركتهم وصعدت الدرجات وأنا ألهث خائفاً، عليّ أن أجد الهاتف، لم أكن أعلم بأنني بحثت بداخل المنزل ثلاث مرات حتى وجدت الهاتف، لم يكن مخبئاً أبداً بل كان واضحاً على جدار المطبخ لكن عندما يدب الرعب في أعمق أعماق قلبك سيقلب لك كيانك ولن تجد السهولة بعمل أي شيء مهما كان ضئيلاً وحقيراً، اتصلت على الشرطة سمعت صوت سيدة هادئة فقلت لها بهمس

- يوجد رجل عجوز يحتجز ثلاث شبان أنه يعذبهم

ردت علي السيدة

- هل يمكنك أن تخبرنا بعنوان المنزل وسنصل إليك على الفور .

- أنه منزل رقم ١٥....

وشعرت بحديده صلبة تضرب رأسي بقوة، لأغيب عن الوعي.

حتى قبل أن أفتح عيناي شعرت بألم يعصف برأسي تأوهت وأنا أتفحص المكان، وجدت نفسي مثبت على خشبة مستطيلة تجبرني على الوقوف، حاولت جاهداً أن أحرك يداي لكن دون جدوى فقد ثبتها هو بحبال متينة، قال الشاب الذي عن يميني

-أنا جداً جداً آسف لأنك هنا

وسمعت بكاء شديد النهيج عن يساري، أنها الفتاة كانت تقول بكلمات ممزوجة ببكائها المر

- لن نخرج من هنا أبداً، سأموت في هذه المزبلة

آثار التعذيب واضحة على يديها وأكتافها، شعرها البني القصير مقصوص بإهمال، تلبس قميص أحمر وبنطال أسود متسخان ومقطعان عليهما أثار حروق دائرية صغيرة

- أسمع

قال الشاب الذي عن يميني لا يبدو أفضل حالاً من الفتاة لكنه ليس أسوء من الشاب الفاقد الوعي

- العجوز سيخيّرك بين وسيلتين تعذيب الحرق بالسجائر أو القطع بالمشرط، هو لن يحرقك بشدة ولن يقطعك عميقاً حتى لا تموت بسرعة، بل هو سيدعك تموت من تعفن الجراح

أكمل بسخرية

-كما يقول فلندع الطبيعة تأخذ مجراها، الملعون الخرف

كل هذه المعلومات كانت دسمة عليّ لأهضمها في ساعة واحدة ، شعرت بغثيان رهيب فأخرجت كل ما ببطني على ثلاث دفعات، حتى أفرغت ما ببطني كاملاً وما زلت أشعر بالرغبة في التقيؤ، تنفسي صار عسيراً للغاية، صرخ الشاب علي

– هيه أنت تدخل في نوبة ذعر عليك أن تهدأ، لا تقلق لدينا خطة سننجو من هنا

رددت عليه بيأس حقيقي وندم بالغ

– لم يكن عليّ البحث عن الهاتف لو خرجت من هنا وذهبت إلى الشرطة لنجونا جميعاً، فيما كنت أفكر

رد الشاب بنبرة هادئة

– لقد كنت مذعوراً لا احد يلومك ، بالمناسبة ماذا كنت تفعل هنا؟

أدخلت الهواء إلى رئتاي، الندم لن ينفع الآن بل سيزيد من تعقيد الوضع وتأخير الفرج ،أجبته بصوت أهدأ

– أنا سارق ، جئت إلى هنا لأسرق المنزل

أكملت بسخرية

– وتحول المفترس إلى فريسة

قال الشاب

– أنا فيليب وهذه جودي وذاك الغائب عن الوعي هناك أخي كارل ، يسعدني أنك تمتلك حساً من الفكاهة فهذا ما ينقصنا هنا

قال بعد تفكير عميق

-أنت سارق إذا؟ هل يمكنك أن تتتشل شيئاً من العجوز إذا مر بجانبك؟

قلت له

- هذا ليس مجال تخصصي لكن يمكنني أن أحاول

قال فيليب

- لا عليك أن تنجح نحن سنعتمد عليك، العجوز يلبس حزاماً خاصاً، به أدوات التعذيب سأغضبه بشدة حتى ينفعل ويضربني إذا فعل فهو سيقترب منك حتى يقدر على ركلي انتشل منه السكين أو الشفرة لن يعلم ما يدور حوله

قاطعته الفتاة جودي

- لا يا فيليب سيقتلك أنه مجنون

قال فيليب

- أنا لا أهتم حقاً الآن ، أخي كارل سيموت هنا إن لم نفعل شيئاً، هو تطوع بدلاً عنا للتعذيب عدة مرات لن أعيش سعيداً إن لم أرد له الجميل

قلت لهم

- نعم سأعمل على خروجنا من هنا لكن بشرط، عليكم أن تكتموا سري لن تقولوا للشرطة بأنني سارق

ابتسم فيليب وقال

- اتفقنا يا ...

توقف ليعرف اسمي فقلت له

- جيمي، اسمي جيمي

قال

- اتفقنا يا جيمي

وجهت نظري للفتاة وقلت لها

- وماذا عنك آنستي؟

ارتسم الأمل على وجهها وقالت

- بالطبع اتفقنا

انتابني الفضول عن قصتهم فسألتهم

- وكيف انتهى الحال بكم في هذا القبو الكئيب؟

الفصل العاشر

قال فيليب بعد أن أخذ نفساً عميقاً

- أنا وكارل وجودي لطالما تسكعنا سوياً، منذ أن كنا صغاراً وحتى بعد أن صرنا كباراً

أكملت جودي

- أثرنا المشاكل سوياً، غطينا على بعضنا حين نقع في المتاعب، وتكاتفنا حين تحدث الأزمات

أخذت هي نفس عميقاً تقاوم الإحساس بالاكتئاب، ثم أكملت

- فقط أتمنى ألا نموت هنا سوياً

قلت لها بصوت أحاول أن أكسبه بعض الثقة

- لا، كلنا سنخرج من هنا

أكمل فيليب

- وقبل أسبوعين بالتمام تسللنا من المدرسة وجبنا الأحياء بحثاً عن أمر مسل نفعله، كانت السماء على وشك أن تمطر وخفنا أن نعود إلى منازلنا فيغضب أهالينا، ولمحنا بجانب سور العجوز شجرة سنديان كبيرة فجلسنا تحتها هرباً من المطر، وبعد نصف ساعة أشتد المطر، وكان العجوز قادماً بسيارته فرآنا، وأتى إلينا بعد أن ركن سيارته في المرآب، مازحنا قليلاً وعرض علينا كوباً من الكاكاو الساخن، وبعدها سيوصلنا إلى مدرستنا أو حتى منازلنا، أنا وجودي بلعنا الطعم ودخلنا معه على الفور

لكن كارل اعترض علينا وأبى بشدة دخولنا هنا حتى أنه كان سيتركنا ويعود للمنزل، لكنه تراجع عندما أقنعناه

قالت جودي باكية

- كان من المفترض أن نستمع له

رد فيليب وهو ينظر لأخيه كارل بنظرات تتشبع بالإحساس بالذنب

- نعم أتمنى أني لم أعارضه ، شربنا الكاكاو الساخن ولم نشعر بأنفسنا إلا ونحن هنا مقيدون بالحديد وكارل عليه أثار الشجار، علمنا بعد ذلك أن كارل لم يشرب الكاكاو وعندما رآنا فاقدي للوعي علم بما سيحدث العجوز، هجم على أخي بلا هوادة قال عنه كارل قد يمشي ببطء لكنه قوي كالثور، هذه قصة أسرنا أتمنى أن أخرجه من هنا، لأنه أخي الأكبر قرر أن يتطوع عني في حصة التعذيب، اختار التعذيب بالتقطيع والآن فقد الكثير من الدماء، علي أن أنقذه في أسرع وقت ممكن

- وسنفعل

لم أجد كلمة مناسبة أكثر من هذه لأخفف عنهما ولأعطيهما الأمل لأنه بلا أمل لن ننجح في عمل أي شيء

ثم أكملت

- إذا علي أن أختار التعذيب بالحرق حتى لا أفقد دمائي وأضعف هنا

قالت جودي

- لن يكون مسلياً لكنه أفضل من غيره

أمضينا الليلة في الحديث، كان أشبه بتجمع لضحايا التعذيب أو هكذا كان، حل

الصباح وازداد خوف جودي، وجهها يمتقع شيئاً فشيئاً، علمت وقتها أنه قد اقترب وقت اللقاء ومعها حصص التعذيب، انتشرت عدوى الخوف بيننا نحن الثلاثة ، وساد الصمت الرهيب في القبو الرطب، الآلام وجدت طريقها لمعدتي ورأسي أحسست به سينفجر هنا قبل وصول العجوز، كنت أتمنى أن أفقد وعيي أكثر من أي شيء أخر، لم أرد أن أشاهد وأرى ما سيفعله بهما أو حتى بي، لكنه حلم مقتول وأمل غير موجود، سمعنا صوت المفاتيح أنها أقفال خمسة تمنعه منا وها هي تفتح واحدة بعد أخرى لترجف أجسادنا الثلاثة مع كل قفل يفتح ويقربه منا، وأخيراً يدخل إلينا الرجل العجوز كما قال فيليب يلبس حزام مليء بالشفرات يرتدي تحتها بزة بلاستكية زرقاء ونظارة بلاستيكية لتحمي معظم وجهه من الدماء المتوقع نثرها هنا، يسحب كرسي مطوي أبيض مرشوش بدماء قديمة من على حديده صدئة مثبته على جدار القبو ثم يفتحه ويضعه أمامي ويجلس عليه عاقد يديه، صوت بكاء جودي هو الوحيد الذي نستمع إليه الآن، نشيجها وشهقاتها محاولاتها الفاشلة في كتم بكائها، يرفع قارورة عصير زجاجية من على الأرض ويرميها بقوة على وجه جودي لتصيح المسكينة ألماً فيقول هو

- أصمتي أيتها البغية وإلا بدأت بك

صمتت جودي بصعوبة أو حتى فقدت الوعي ما عدت أفكر بها بعد الآن، نظراتي كلها مركزة على الرجل العجوز وحواسي جميعها تستعد لنشل ما نريده جميعنا (شفرة واحدة) يشعل العجوز سيجارة يحملها بيده اليمين ويشفط نفساً عميقاً منها وينفثها نحوي ببطء، من الواضح أنه يتلذذ بها أظن هذه الساعة بالنسبة له موعد مسلسل مثير بالنسبة لنا نحن البشر الطبيعيون، يجهز سيجارته كما نجهز نحن أوعية الفشار وقوارير الصودا، يقول الرجل العجوز

-آسف أيها الفتى لربطك بهذه الحبال المتعفنة، فسلاسل الحديد لا أملك منها إلا ثلاثة وهي كما ترى مأخوذة، أنت لا تمانع بعض العفن الأسود على يديك، أليس كذلك؟

هل أرد عليه، أنا أعلم بأنني في وضع صعب لكن هل سيسوء إن رددت عليه، وجدت الكلمات تخرج من فمي بلا سيطرة مني وبصوت مرتجف

- أنا جدا مرتاح يا سيدي، ليس عليك أن تغير أي شيء

جودي فاقدة للوعي وفيليب يراقب الوضع محافظاً على هدوئه وأنا على وشك أن أثرثر مع قاتل مختل، لا يمكن للوضع أن يزداد تعقيداً

-أنا أكرة تلك الأسلاك البلاستيكية، هي تأخذ إلى الأبد لكي تتحلل، ونحن علينا أن نحافظ على الكوكب من أجل شبابنا الصغار

كم هو متناقض يحافظ على الكوكب ويعذب شبابه، أردت أن أقول له أنا لا أهتم بكوكبك الغبي فقط حل وثاقي ودعني أذهب، طبعاً ولأنني لست مجنوناً قلت له

- بالتأكيد سيدي

قال وهو يبتسم

- هل تعلم أنت بالفعل تعجبي أيها الشاب أنت تفهمني، فقط لو لم تكن تحاول تخريب هوايتي

ثم وقف وسدد لكمة عنيفة إلى أعمق أعماق معدتي حتى خيّل لي بأن قبضته لامست عمودي الفقري، لا أعرف ما هو الشعور بالموت لكن يمكنني القول بأنني قاربت الشعور به وخيّل لي بأن الهواء قد اختفى من الوجود صارعت بكل قوتي من أجل نفس واحد لكن الألم كان أشد علي لمنعني من حتى المحاولة مع تلك اللكمة لم أتعافى منها ومن

آلامها المبرحة حتى سدد لكمة أخرى إلى وجهي وأخرى ثم أخرى حتى فقدت الوعي.

لم أصحو بعدها حتى الصباح التالي على صوته البائس يسألني عن خياري في التعذيب أردت الكلام لأختار الحرق، لم أكن أرى شيئاً فقط أسمع أصوات صياح جودي تتعذب بين يديه ثم يسألني مرة أخرى عما أفضله فتحت عيناي بصعوبة ووجدته يقف أمامي فقلت له بأكبر جهد بذلته

-الحرق

قال مبتسماً

- بالطبع، لكن ليس اليوم أريدك واعياً لما يحدث حينما أطفئ أعقاب السجائر على جسدك، ربما غداً

سمعت صوت حذائه يبتعد عني ويتجه إلى فيليب ويقول

- هل ستأخذ حصة أخيك اليوم؟

قال فيليب بصوته المتعب

- نعم

وبعدها لامست أذناي أصوات أعقاب السجائر تنطفئ باللحم البشري ورائحة الشواء تنتشر في الأجواء، فتحت عيناي بصعوبة لأرى فيليب يحاول الصمود بينما يلقى حصة التعذيب بصبر وثبات متواصل، حقاً لم أرى أشجع وأصبر منه على هذا العجوز الخبيث، كان يتأوه ألماً يحاول قدر ما يستطيع كتم صراخه، علمت فيما بعد أنه خائف من أن يسمعه أخيه كارل فيصحو ويتطوع بدلاً عنه، احترمت أخويتهما كثيراً وغبطتهما عليها لو كان لدي أخ لكان الآن يعتني بأختي، أدرت رأسي بصعوبة إلى جودي لأطمئن

عليها كانت ترتجف كورقة، تنتحب في صمت، وتتنفس بعنف، بدأ الدوار يداهم رأسي بقوة حتى فقدت الوعي مرة أخرى.

هذه المرة صحوت في المساء على أصوات نداءات جودي وفيليب نظرت إليهما وأنا أعاني من دوار خفيف أفضل حالاً من يوم أمس بالتأكيد فيليب يهمس إلي

- هيه جيمي عليك أن تسرق الشفرات في أسرع وقت، العجوز طلب سلاسل من حديد ليقيدك بها لقد سمعناه، إذا كبلت بالحديد لن نخرج من هنا حتى لو سرقت ألف شفرة حلاقة

بدأ الدوار بالزوال أخيراً، فألتفت إلى جودي التي قالت متوسلة باكية

- أرجوك عليك أن تنجح، لن أستحمل المزيد من هذا الجحيم

قلت لهما بصوتي الواثق

- بالطبع سنخرج من هنا

أدرت رأسي إلى فيليب وسألته

- متى ستصل السلاسل الحديدية؟

أجاب فيليب بسرعة

- غداً أو بعد غد، لست متأكداً

أدرت بصري حولي لأرى ما أستطيع رأيته في هذا القبو، علي أن أجد سلاحاً ما هنا وأعلم الإحداثيات التي تحيط بي القبو، خالي إلا من حديده مثبتته على الجدار تحمل كرسياً يطوى، عدة صناديق خشبية قديمة، طلبت منهما أن ينظرا حولهما ويصفا لي ما تراه أعينهم

قالت جودي

– مكنسة خشبية ترتكز على الجدار، منشفة قديمة ، وثلاث قوارير عصير زجاجية

سكتت جودي ليبدأ فيليب بالوصف

– أرى مرتبة فوق سرير مكسور

حسناً رائع القوارير سأكسرها لأغرسها في عنق العجوز بهذه السهولة لنخرج من هنا، بالطبع عقلي يهول الأمر ويوسوس لي بأن الأمر ليس بهذه السهولة الأخطاء دوماً تجد طريقها إلي، بعد أن رسمت الخطة في رأسي حان الوقت لأشاركها معهم فقلت لهم

– فيليب جودي الخطة كالتالي، عندما يدخل العجوز علي أن أكون الأول في التعذيب وأعلم بأنني سأندم فيما بعد لكنني سأتطوع بدلاً عنك يا جودي، أظن بأنك نلت كفايتك من هذا السيادي المجنون

شكرتني جودي بابتسامة واهية وكلمة شكراً خافتة، هذا كان كافياً بالنسبة لي فأكملت

– علي أن أكون الأول حتى عندما أنشل الشفرة سأتمكن من إخفائها خلف يدي ولا أظن أنني سأفعل هذا جيداً حينما يتم حرقي بالنار

قال فيليب

– لا عليك دع توقيت استفزازهِ علي ، حين تكون مستعداً أغمز لي ووقتها سأثير أعصابه، وهناك شيء علي أن أخبرك به بالطبع حين جئت أنت إلى هنا لم نكن نثق بك لنخبرك لكن عندما أبرحك ضرباً علمنا أنك في صفنا

ابتسمت له وقلت ساخراً

- أنا سعيد أن هناك جانب إيجابي للضرب المبرح ذاك

بدا على وجه فيليب الجدية وهو يتكلم

- هناك تحت السرير المكسور يوجد هاتف خلوي أزلقته هناك حين كان العجوز مشغولاً بتفتيش كارل، كنت مخدراً بشدة لكنني نجحت في إبقاءه سراً

لم أله حقيقةً على شكوكه، فلو كنت مكانه لكنت في حال أسوأ منه، شعرت بارتياح كبير إذاً لا حاجة للقتال مع العجوز فقط اتصال واحد إلى الشرطة وسيمتلئ الحي بسياراتهم ورجالهم، ابتسمت لفيليب وقلت له والراحة تعلو محياي

- أنت يا فيليب وفرت علي القتال العنيف الذي كنت سأعانيه من ذلك المجنون

وهذه آخر الكلمات التي نطقتها تلك الليلة فقد انشغلت جاهداً في ترخية الحبال عن يدي قدر ما أستطيع، لأفسح أكبر فرصة لنشلي للشفرات، ومن يدري لعلي أنجح في فك وثاقي قبل أن يدخل علينا العجوز المجنون.

كنت أعمل بجد كي أرخي الحبال القديمة، أصابعي كانت ترتجف مع كل حركة أقوم بها، الجراح على يداي سالت منها دمائي الدافئة، كنت أتألم بشدة تخيل بأن لديك جراح جديدة تنزف دماً وفوق هذا تحكها بشدة في حبال قديمة متعفنة كنت أعلم بأنني سأتسبب في التهاب جراحي، لكن ما رأيته وسمعته بالأمس كان محفزاً إيجابياً لاجتهادي هذا، وحين حل الصباح نجحت في ترخية الحبال بقدر ٢ سم على الأقل، شعرت بالراحة فلدي فرصة جيدة اليوم لنشل ما أريد، فأغمضت عيناي لدقائق أريح فيها جسدي المنهك الذي يعاني من الجفاف، كانت دقيقتان فقط أو هذا ما أظنه حتى شعرت بألم رهيب أيقظني من نومي التعيس هنا، كانت ملعقة فضية أنطفأ لهبها على قميصي ليحترق على جلدي، كان الألم يتمركز في منتصف صدري لينتشر إلى

بقية جسدي، وصرخت رغماً عني فزعاً متألماً، فتحت عيناي لأجده يجلس على كرسي أمامي، يلبس عدته المعتادة بزة بلاستيكية زرقاء وحزام مليء بالشفرات ونظارة بلاستيكية شفافة، إذاً فقد حان الوقت لأنظم رسمياً لنادي التعذيب هذا

الفصل الحادي عشر

قال لي مزهواً فرحاً

-صباح الخير أيها الفتى، اليوم لدينا أول حصة تعذيب أنا جداً متحمس، كم أحب الأجساد الجديدة فهي كما تعلم خالية من الجراح الملتهبة

قلت له علي أن أقنعه بشيء واحد ينفعنا

- ربما عليك أن تعقم جراحنا قبل أن تذهب

عقد حاجبيه وقال بلهجة سؤال ساخرة

-وأفسد عمل الطبيعة ؟

سحب سيجارة من علبته الفضية الفاخرة، أشعلها ثم نظر إلي وهو يسحب نفساً عميقاً من دخان سيجارته، نظرت عن يميني وعن شمالي ووجدت جودي تطالعني ودموعها تساقط على وجنتيها الحمراوين، كاتمةً كل صوت قد يخرج من فمها، علها أن تتجنب غضب العجوز، حركت شفاهها بصمت لأعلم أنهه تريد القول بأنها آسفة لحالي، وفيليب صوت تنفسه العالي وصل إلى أذني فعلمت أنه يحاول أن يتماسك حتى يقدر على استفزاز العجوز اليوم، كنت أعلم بأنني سأندم على قراري لكنني قلت للعجوز

- اليوم يوم حظك، فأنا سأتطوع بدلاً عن جودي

قال الرجل العجوز بعد أن نفث دخان سيجارته على وجهي

- يسعدني أنه لم ينقرض جيل الشباب النبيل

أكمل بعد أن أطفأ سيجارته على بطني حاولت أن أكتم ألمي لكنني لم أستطع، فصرخت ألماً مرة أخرى.

-أنا لا أستخدم الحرق بالملعقة إلا لأحسب عدد الحصص التي تعرضتم لها، وفي كل حصة علي أن أحرق خمسة وعشرون سيجارة على جسدك أو في حالة كارل خمسة وعشرون شقاً.

أكمل هو عمله على جسدي مستمتعاً، يحرقني ببطء ثم يلتقط صوراً لحروقي يتأملها منتشياً فيعود إلى مقعده ليكمل عملية تعذيبي، عندما وصل إلى آخر سيجارة لم أصرخ فقد نشف ريقي وأجهدت رئتاي، أما هو فأحضر ملعقته الفضية وأشعل تحتها نار ولاعته حتى صارت متوهجة مخيفة وسألني وهو منشغل بإحمائها أكثر فأكثر

- أنت تتطوع بدلاً عن جودي؟

بدت كلمة (لا) جداً مغرية الآن من سيعرض نفسه لهذا العذاب؟ أنها ليست غلطتي حتى قبض عليهم هنا، كل واحد مسئول عن نفسه، حاول المنطق أن يقنعني بالرفض لكنني سرعان ما تذكرت أختي وإيفا ماذا لو كانتا في موقف مماثل؟ ألن أتمنى أن يكن هناك من يحميهن لذا وافقت وقلت

- نعم

مسرعاً حتى لا أعالج الموقف داخل رأسي مدة أطول فأرفض، تبسم العجوز متحمساً وألصق ملعقته الحامية في أعلى صدري وقال

- بقيت لك ثلاثا وعشرون ملعقة

لم أكن أعلم ماذا يقصد بجملته الأخيرة التي لم أرتح لها، لكنه لم يتح لي الكثير من الوقت لأتفكر بها فقد ظل يمارس هوايته المقيتة على بقية أنحاء جسدي، لم يعد الصراخ يجدي نفعاً فهو لا يخفف ألماً ولا يوقف يده، فقط يؤلم حلقي ويزهق صوتي، لذا قررت أن أكتم صوتي وأن أتأوه بدلاً من الصراخ، عليّ على الأقل أن أتجنب أحد الألمين، انتهى هو مني فرتب أدواته بجانب فيليب وأخذ آلة التصوير الثمينة ليصور عمله الفني كما يدعي قائلاً

- هناك من ينحت الصخر وهناك من يرسم على الورق، وأنا فقط فنان من نوع أخر فأنا أفضل العمل على الجلد البشري الحي، أنه أكثر حيوية

نظرت إلى فيليب الذي غمز لي بعينه اليسرى فعلمت أنه مستعد لاستفزاز العجوز، حركت يدي من تحت الحبال لأعلم بأنني سأنشل شفرة الحلاقة إذا ما لامس يداي حزامه، لذا غمزت له لأؤكد له بأني مستعد.

قال فيليب

- هيه أيها العجوز هل تريد رأيي في عملك الفني؟

سعد العجوز بكلمات فيليب واقترب منه باهتمام قائلاً

- بالطبع يا فيليب يهمني أن أسمع أراء الناس بأخص أنتم لأنكم ربما أنتم ستكونون الجمهور الوحيد لهذا النوع من الأعمال الفنية

أكمل فيليب

-هل أستطيع رؤية الصور؟

لم أظن العجوز سيبدي هذا النوع الكبير من الاهتمام لكنه بدا كطفل صغير سيموت

من شدة الحماس ليري أباه رسمته المفضلة.

أخذ العجوز الصور وأمضى يتحدث متحمساً عن هذه الجروح ماذا تمثل له، وما كان إحساسه عندما أطفأ تلك السيجارة على جسدي، نظرات فيليب المهتمة تراقب الصور والعجوز حتى انتهى من جميع الصور وسأله العجوز

- إذا يا فيليب أخبرني برأيك؟

عبس فيليب في وجه العجوز وقال

-هل تعلم كل الوقت الذي أمضيته في تعذيبنا اعتقدت بأنك ستنجز شيئاً نفتخر به كلنا ،عملاً يستحق كل ما مررنا به، لكنك فقط أثبت فشلك أنت فاشل، أنت خيبت آمالنا، انظر إلى عملك هل تسميه فناً؟ أخجل من نفسك هذا كريه كالقيء المقرف

كان يصرخ على العجوز بصوت عالي حتى أنا ارتعبت من فيليب، وهذا ما ظهر على وجه العجوز كان خائفاً بشدة حتى إن الصور سقطت من يده وأمسك رأسه بيديه وقال

-لا لا لن تحطمني كالآخرين .

ثم ظهر الغضب على وجهه، أحمر وجهه وتعرق جسده واهتاج يصرخ

- أنا فنان ، أنا فنان

لكم فيليب في وجهه وبطنه ثم تراجع وبدأ بركله على قدمه وعلى بطنه، حتى ألصق جسده بي وأصبح بإمكاني نشل ما أريد كل مرة يقترب فيها مني، أحاول بشدة لكنني في كل مرة أفشل فقد فيليب وعيه وأنا أفقد أعصابي ما زلت أفشل كل مرة حتى غادرنا العجوز غاضباً دون أن يقفل باب القبو

سألتني جودي بهمس

- هل نجحت؟

كنت خجلاً ومحبطاً أجبتها بصوت مخنوق

- لا

قالت جودي

- لا تقلق، لدينا فرصة أخرى بالغد، من الجيد أنك في الوسط بيننا، سيكون علي الدور غداً

- أنا آسف

لم أستطع أن أتحدث، ها هو فيليب فاقد وعيه بلا فائدة ، كرهت يدي العقيمة لم لم تأخذ الشفرة؟

قاطعت أفكاري جودي:

- لا تلم نفسك بل لم ذلك الرجل العجوز هو من يتلاعب بنا

أجبتها

- نعم أنت على حق

تذكرت آلامي فنظرت إلى جسدي ما زالت الحروق تؤلمني بشدة وأثار الملعقة واضحة، تذكرت كلمات العجوز فسألت جودي

- ماذا يقصد ب بقي لك ثلاث وعشرون ملعقة

أخذت جودي نفساً عميقاً وقالت

- كل شخص هنا له عدد خمسة وعشرون حصة تعذيب بعدها سيقتل، يمكنك أن

تتطوع لكنه في النهاية سيقتل كل واحد منا

سمعنا صوت خطوات على الدرج، ظهر العجوز من بين ظلمة الباب يحمل دلواً وملعقة بيد ومفتاح صغير بيده الأخرى أقترب من جودي قائلاً

- أنه يوم الإطعام

عالج قفل يديها وقدميها، ورمى الدلو تحت قدميها قائلاً شبه باكي

- أطعميهم

تعثرت جودي فترتطم بالعجوز ليسقطا أرضاً سويةً. دفعها العجوز وصفعها على وجهها صارخاً

- أيتها الغبية أنظري أين تخطين

رفعت جودي الدلو وأدارت ببصرها القبو نحو فيليب وكارل وأنا، اختارتني أولاً لتطعمني حساء رمادي اللون زلق الملمس كريه الرائحة، كانت تنظر إلي بعينين تملأها الكثير من المعاني لم أفهم نظراتها حتى عطس العجوز ثلاث عطسات رهيبات مزعجات، دست جودي شيئاً خفيفاً معدنياً حاداً في يدي، وابتعدت مسرعة إلى فيليب، كدت أضحك فرحاً لقد فعلتها جودي أنها البطلة هنا لم أصدق بأنها ستفعل أمراً خطيراً كهذا، لكنني بالطبع تماسكت واحتفظت بفرحي لنفسي، حاولت جودي إيقاظ فيليب ونجحت فأطعمته القليل من الحساء المقرف ثم توجهت إلى كارل الشاب الفاقد للوعي لتمسح وجهه بيديها وتخاطبه

- كارل حان وقت الإطعام، سأطعمك القليل من الحساء فقط اشرب بقدر ما تستطيع.

ثم حملت الدلو بيد وبيدها الأخرى الملعقة أطعمت كارل لكن الحساء لم يعبر شفاهه ظل ينسكب على ثيابه وجراحه، بدا الفزع على وجه جودي لعدم حركة كارل فوضعت الدلو والملعقة على الأرضية وضلت تحاول إيقاظه هزته صرخت به حتى بكت وصفعته على وجهه قائلة

- كارل لا تمت أرجوك.

ظننت حقاً بأنه قد مات، كادت فرحتنا بالشفرة أن تفسد حتى اهتز جسده وتأوه بضعف لتضحك جودي فرحة وضمته بقوة، كان العجوز يراقب الموقف فرحاً حتى استيقظ كارل فتغير وجهه وعبس ثم صاح في جودي

- أطعميه أيتها السافلة، لم أفك قيدك حتى تؤخريني عن موعد غفوتي

أرتعش جسد جودي مع صراخه فحملت الحساء وأطعمت كارل عدة ملاعق، ثم شربت هي ملعقتين ووضعت الدلو أرضا قائلة

- انتهيت

يمكنني رؤية الخوف والفرح في عينيها، نظر إليها العجوز طويلاً حتى خفت من أن يكشفنا. ما زال وجهه متأثراً وأثار الدمع ترتسم على خديه المتجعدان، كلمات فيليب الرهيبة دفعته إلى بكاء مرير، يا له من عجوز مريض يقدس آراء ضحاياه، قام من مكانه ليكبل يدا جودي وقدماها، ثم أخذ دلوه وملعقته وغادرنا بعد أن أقفل الباب علينا، سرعان ما خرج حتى منحنا الحرية في الابتسام فرحاً وأخيراً سنخرج من هنا وهذا يعني لي الكثير، لكن هم الذين عانوا الأمرين هنا ليس بوسعي سوى أن أتخيل قدر السعادة التي ستملأ قلوبهم بمجرد ما نخطو أول خطوات الحرية والأمان

بدأت بالعمل على الحبال المتعفنة أحك الشفرة بها بحذر خوفاً من إسقاطها،

وجودي المسكينة تزيد من توتري بنظراتها المعلقة على يدي، أغلقت عيناي لأزيد من تركيزي على هدفي، وأخيراً حررت يدي اليمنى ثم تلتها يدي اليسرى ثم حررت قدماي، اتجهت فوراً إلى جودي مقرراً تحريرها لكنها همست إلي

- لا اذهب إلى الهاتف اتصل بالشرطة

معها كل الحق لن أقدر على تحريرها من قيدها الحديدي وحدها الشرطة ستنقذنا من هذا الموقف، خطوت نحو السرير بحذر والتصقت بالأرض حتى أمد يدي إلى تحت السرير القديم

- نعم وجدته

تناولت الهاتف على عجل لأتصل بالشرطة

- وأول ما لقطت أذني صوت السيدة تلوت عليها عنوان المنزل هامساً وقلت لها

- العجوز سيقتلنا أرجوكم أسرعوا سنحتاج على الأقل أربعة سيارات إسعاف، كنت وقتها متشائماً أو واقعياً، فقد توقعت الأسوأ أن يحدث لنا ماذا لو دخل علينا العجوز بمسدس وأفرغه على جثثنا أو حوصر هنا من قبل الشرطة وحدث تبادل لإطلاق للنار وأصبنا معه

سألتني السيدة عن عدد المصابين فأجبتها

- المصابين ثلاثة، اثنان فاقدان للوعي واحدهما في حالة حرجة.

بعدها سمعت صوت خطوات قادمة أرعبتنا أنا وجودي دسست الهاتفي في جيبي وعدوت مسرعاً نحو الباب لأغلقه وأثبته بكل ما أوتيت من قوة أحسست بالباب يندفع المرة الأولى لكنني نجحت في إبقاءه خارجاً فعلم العجوز بالأمر وسبنا

- أيها الحمقى المغفلون هل ستظنون بأنكم تقدرون على هزيمتي؟ سأدخل وسأقتل من يقبع خلف هذا الباب.

صاحت جودي علها أن تخيفه

- الشرطة قادمة عليك بالهرب من هنا إذا أردت أن تعيش

لكنها لم تفلح في إخافته فدفع الباب بقدمه مرة أخرى هذه المرة أقوى من سابقتها بالكاد ثبت الباب في مكانه، نظرت إلى الشفرة الملقاة على أرضية القبو فعلمت جودي ما نويت وقالت فزعة

-لا تحاول الاشتباك معه فكارل لم يقدر وهو أضخم منك حجماً

مع انتهائها دفع العجوز الباب للمرة الثالثة ولم أستطع هذه المرة النجاح في إبقاء العجوز خارجاً فدخل غاضباً

-سأقتلك أيها الشاب الوقح

لم أرد على أحد منهما بل ركزت على الشفرة النحيلة، علي أن أنجح في قطع وريده النابض بداخل رقبته، هجم علي صارخاً بأعلى صوته

- سأقتلك أيها الحثالة

ناورته بلفة سريعة على يميني فأتعدى كارل وأقترب إلى الباب لكن العجوز كان سريعاً فلحق بي وأمسك بقميصي ورفعني إلى الأعلى ناوياً على رمي بكل قوته إلى الأسفل، لكنني أسرعت وجرحت يده جرحاً بالغاً ليسحب يده المجروحة ويدفعني بيده السليمة إلى الجدار حاولت أن أتماسك وأن أهجم عليه مرة أخرى لكن دفعته لي رمتني إلى الجدار لأشعر بألم يخترق ظهري، ألم شلني ومنعني من التحرك، لم

أكن أعلم ما السبب لكنني حين رأيت الكرسي المرمي على الأرض علمت بأن الحديدة التي كانت تحمل الكرسي على الجدار اخترقت ظهري لم أستطع التنفس كنت أستمع لصوت تنفسي الضعيف وطعم دمائي يصل للساني مع كحاتي الضعيفة، حاولت التماسك لأضرب العجوز مرة أخرى لكن الرؤية أصبحت عسيرة والألم لا يحتمل، لم تعد قدماي قادرة على حملي لأسقط إلى أمامي تحت تأثير الدوار المصحوب بالغثيان، أغمضت عيناي استعداداً للموت سمعت قبل أن أغفو صفارات الشرطة وبعدها همسة العجوز في أذني

- يوماً ما سأقتل أختك بنفس الطريقة .. لورا اليس كذلك .

ثم فقدت الوعي

الفصل الثاني عشر

هم قالوا بأنني لم أصحو إلا بعد أسبوع من الحادثة متأثراً من جراحي المتعفنة ودمائي المفقودة، عندما صحوت كان الأطباء يلتفون حولي مهنئين لي بالعودة إلى الدنيا لكنني لم أنتبه إلا لأختي التي تجلس على كرسي متحرك بجانبها تقف إيفا حبيبتي فتاتي الباكية

تذكرت الحادثة، فسألتهم بصعوبة

- هل أمسكتم به العجوز؟!

لم يجبني أحد، ينظرون إلي بنظرات الشفقة والحزن، دخل رجلان يلبسان الزى الرسمي أظهرا لي بطاقتهما يتبعان لمكتب التحقيقات الفيدرالي، عرفا عن نفسيهما المحقق توماس وزميله جيمس، طلبا بأدب أن أجيب عن أسئلتهما كنت خائفاً من أن أقول الحقيقة فأسجن أنا خائف ومتألم، أجبتهما على أسئلتهما عن الفترة التي قضيتها بداخل منزل العجوز مدعياً فقدان الذاكرة عن الفترة التي سبقتها، كنت حريصاً على أدق التفاصيل، انتهيا من أسئلتهما ليحين دوري وأسأل عن كارل وجودي وفيليب

- وماذا حدث للمراهقين الثلاثة الذين كانوا معي؟ هل هم هنا في المستشفي أريد رؤيتهم ؟

قال المحقق جيمس يواسيني

- أنا آسف؟ يا جون لم نستطع إنقاذهم ، فإدوارد شاين قطع شرايينهم قبل أن يهرب، كانت مذبحة

الخبر كان ثقيلاً عليّ كالجبل حطم كل أمل في كياني، كيف لهم أن يموتوا قبل دقائق من الإنقاذ، لو أبقيت الباب مغلق لدقائق قليلة لكانوا معي الآن، العجوز هدد بقتل أختي سيعذبها خمسة وعشرون مرة ومن ثم سيقتلها ببرود أنا لم أفشل في إنقاذهم فحسب بل عرضت أختي للخطر أيضاً

لم أعلم ما حدث لي وقتها كنت أصرخ بشدة وأقاتل للخروج من الغرفة حاول المحققان تثبيتي بدون أن يؤذون جراحي لكنني نزفت بدون أن أهتم، أريد النيل من ذاك المجرم علي أن أقتله قبل أن يقتل لورا

آخر جملة أذكر أنني قلتها

- علي أن أقتل السافل قبل أن يقتل لورا

الفصل الثالث عشر

بعدها الأطباء دخلوا وحقنوني بالمهدئات، لم أذكر الستة أشهر التي مضت بعدها وكأنني كنت في عالم آخر، عالم لي وحدي وكأنني أطفو في فراغ لا نهائي صفاء ذهني وهدوء متناهي.

الصوت الوحيد الذي كنت أستمع إليه هو صوت أختي حين كانت تأتي لزيارتي مع عائلتها الجديدة، كنت أستمع إليها بوضوح سعيد بما تخبرني به عن حياتها الجديدة، تبناها زوجين رائعين يسكنا في قرية مجاورة، لديها نشاطات مدرسية مسلية في الصباح وتستكمل علاجها الطبيعي مع والدتها بالتبني من الرابعة عصراً حتى السادسة مساءاً، هي الفترة الوحيدة التي يسمح لها بالوقوف والمشي فيما عدى ذلك فهي تعتمد كلياً على الكرسي المتحرك، علمت أيضا بأننا قد انتقلنا إلى مكان آخر بعيد عن صخب المدينة وخطرها وتغيرت أسمائنا لدخولنا ضمن برنامج حماية الشهود خوفاً من تحقيق العجوز لوعده أو سعيه في إيذائي، فصار اسمها كارين واسمي آدم.

حين تحدثني أشتاق لوجهها لكنها محجوبة عن عيناي لم أرها إلا مرة واحدة خلال الستة أشهر التي كنت بها في حالة اللاوعي، كانت تجتهد كثيراً في علاجها الطبيعي لتريني كيف هي تمشي الآن، كنت أسمع صوتها تعاتبني بشدة

– آدم لقد تعبت كثيراً حتى ترى ما سأفعله وأخيراً يا أدم أنا سأمشي، هيا يا أمي أنا مستعدة

كنت مشتاقاً جداً لها وقلقاً عليها، كنت مرعوباً من أن تقع فتتأذى ولن أتمكن من مساعدتها لذا لثلاث ثوان كاملة حدث أمر ما ، كنت أشعر بعيناي مفتوحتان فأغلقتهما

بأقوى ما عندي لأعيد فتحهما لأراها حبيبتي أختي تمشي بمساعدة من امرأة ورجل متوسطان في العمر، تلبس فستان عشبي جميل وقد طال شعرها الأسود ليصل إلى كتفيها وعلى محياها أجمل ابتسامة رأيتها فابتسمت لها، رأيتها لثلاث ثوان فقط لتختفي من جديد من أمامي وأعود إلى وحدتي الهادئة حزيناً فأنا أريد الخروج من هنا إليهم لكنني لم أستطع إلا لثلاث ثوان غالية على قلبي، لكنني ما زلت أستمع لها تصرخ لهم بفرح

– هل رأيتم ذلك لقد أبتسم آدم لقد أبتسم أي أنه يعلم أنه يستمع إلي، رأيته ينظر إلي، صمتت لثوان لعلها تستمع لوالديها فهي دائماً ما تحدثهما لكنني أبداً لم أسمع أصواتهما ، أكملت

– أنت محق علينا أن نخبره الآن.

لم أعلم ما حدث بعدها لكن أختي أصبحت تتحدث إلي كل يوم لساعات طويلة كل يوم فتوقعت بأنني قد انتقلت معها في منزلها أخبرتني بأن أبويها قررا أن يتبناني رسمياً وأنهما سيعتنيان بي، وأصبحت تمشي الآن أكثر بكثير من السابق

الوضع تحسن كثيراً عن السابق، أصبحت أذناي تلتقطان أصوات أكثر كصوت والدتنا كما أظن السيدة إليزابيث التي تمتلك صوتاً هادئاً وأخلاقاً عالية لا عجب بأن عزيزتي لورا سعيدة الآن.

كنت أحزن كثيراً عندما تشكو لي إما عن اشتياقها لي ولحديثي كان تبكي كثيراً عندما تتذكر ماضينا الجميل

– أريد أن أستمع لصوتك يا آدم، أريدك أن تجادلني كالسابق أنا أعلم بأنك موجود وأنك تستمع إلي لكنني أحتاج لك أكثر الآن، أستطيع أن أرى يدك تقبض على الكرسي

بقوة حين أشكو لك وحين أسقط فأتألم لذا أنا أعلم بأنك ما زلت تستمع لي.

ثم غادرت لأعود إلى وحدتي من جديد ...

لكن ما زالت الأمور في تحسن مستمر أصبحت بعدها أستمع لوالدنا بالتبني السيد إدوارد، كان له صوت متوازن قليل الكلام فيما عدا العلم فهو يتحدث عن كل شيء في هذا الكون، يحدثني كل مساء ويخبرني عن أحداث العالم الجميلة كسقوط الشهب، ونزول الثلوج وكيف أنهم صنعوا أكبر رجل ثلج في القرية.

الفصل الرابع عشر

كنت أحب حديثه جداً وأتحمس مع أحداث لم أستطع التفاعل معها لم أكن أرى أو أشعر بجسدي حتى مرت ستة أشهر كاملة، كنت بصحبة أختي لورا نتنزه في الحديقة العامة في وسط أنسام فصل الصيف الدافئ كما تخبرني، تركتني لورا لتشتري كوزاً من الآيس كريم البارد من الشاحنة الواقفةعلى بضع أمتار منا، سمعت صوتها تجلس أمامي مباشرة تلك الفاتنة التي أحببتها قبل أن أراها

إنها إيفا

- جيمي هل أنت بخير؟ لما لا تنظر إلي؟

كانت قلقة متلهفة ومصدومة

أحسست بيديها تحتضن وجهي بلطف

- جيمي رد علي ، ماذا بك؟

أردت الحديث أردت أن أراها لكنني بعيد، مرهق ..

لم أستطع الخروج من سجني الوهمي ذاك، لم أعرف كيف؟

لكنها استمرت في مناداتي تصرخ باسمي وكل مرة تناديني يقترب الصوت أكثر فأكثر حتى أحسست بنفسي أغمض عيناي بأقوى قوة أمتلكها وأفتحها مرة أخرى وبنفس القوى

فتغير كل شيء أحسست بها حبيبتي إيفا تحتضنني بحنان وتبكي بألم همست لها

- أنا هنا.

تراجعت إلى الوراء بعد ثواني لتركز النظر على عيناي

- هل تراني يا جيمي؟

أجبتها وكلي سعادة

- بالطبع حبيبتي أراك، كل مرة أسمع صوتك سأحارب لأراك

احتضنتها وقلت لها ممنوناً

- شكراً شكراً

لا يخجلني القول بأن دموعي سالت على خداي وكنت متحمساً لها عندها علمت بأنني أعيش، بأنني حر.

جاءت لورا تحمل كوز الآيس كريم الذي أسقطته سرعان ما رأتنا، وهرولت إلي لتحتضنني فرحةً

- أنت عدت أخيرا ، اشتقت إليك أخي

أجبتها لأطمئنها

- أنا لن أغادر مرة أخرى، سأكون لصيقاً بك إلى الأبد.

تراجعت إلى الوراء لترى إيفا وتحتضنها

- اشتقت إليك إيفا، أنا آسفة لرحيلنا

سألت لورا إيفا

-أنا مسرورة بأنك هنا يا إيفا لكن كيف وجدتنا؟

قالت إيفا خجلة

-أنا آسفة أنا أعلم بأن هذا خطأ لكنني وكلت محققا خاصا بالبحث عنكما

قلت لها وسعادتي تفيض من قلبي

-أنا لست آسفاً، لهذا بل أنا ممتن

الأجواء العاطفية تحت تلك الشجرة فاضت بالدموع الصادقة، وأخيراً تحررت من سجني وأخيراً شعرت بدفء العائلة من جديد.

هطل المطر بكثافة وعدنا إلى منزلنا الجديد وأراه لأول مرة، منزل كبير وجميل بحديقة واسعة تزيح الهم عن أي كتف.

دخلت لورا أولاً لتبشر السيدة إليزابيث والسيد إدوارد لم يصدقا حتى نظرا إلي وسمعا صوتي كنت أتحدث بصعوبة وكأنني أقاوم شلل يأبى فراقي.

ادخلاني الى المنزل مسرعين ترفقانني ايفا و لورا

اتصلا فوراً على طبيبي الخاص ليصل إلينا بعد ساعة، رجلاً في أواسط الأربعينيات من عمره أبيض الشعر متوسط الطول نحيل الجسد جلس على الصوفة وطلب منهم إحضاري إليه، سألني الكثير من الأسئلة

هل سبق لك رؤيتي ؟

- لا .

هل سمعت صوتي من قبل؟

- لا .

وتابع في سؤالي لساعتين ثم عرفني بنفسه

- أنا الدكتور إدوارد جونسون، أتابع حالتك منذ ستة أشهر، عقلك الباطني شعر بتهديد من العالم الخارجي لذا أحاط وعيك بغيبوبة مفتعلة، كنت أظن بأن حالتك في تحسن مستمر لكن يبدو أن الآنسة إيفا غيرت المعادلة لتشفى مرة واحدة وهذا بالطبع خبر جيد، الآن سأطلب منك البدء بتمارين بسيطة لتستعيد قوة عضلاتك أنا متفائل جداً بأنك ستبدأ بالجري في وقت قصير، بالطبع سأطلب زيارتك لي مرة في الأسبوع هل هذا ممكن يا آدم؟

- نعم

غادر الطبيب لتبدأ حياتي بالتحسن كنت سعيداً جداً أتمرن بصبر، أُخبِر الطبيب إدوارد بكل شيء، عدا تلك الكوابيس المرعبة التي تجبرني على الصراخ بفزع كل مرة أغمض فيها عيناي، كنت محرجاً من الجميع لكنني لم أدعها تفسد لي حياتي أكملت دراستي وتخرجت بامتياز كنت الأول على دفعتي، توظفت في وقت قصير ثم تزوجت بحبيبتي إيفا، لكنني كل مرة أغمض فيها عيناي كنت أرى العجوز في قبوه المظلم يستمتع بتعذيب إيفا ولورا، في الحلم كانتا تصرخان من آلامهما وأنا أقف خلف العجوز أرى وأسمع لكنني مشلول لا أستطيع الدفاع عنهما فأستيقظ من نومي مرعوباً فأطمئن عليهما أبحث عنهما أو اتصل بهما فأسمع صوت إيفا أو لورا فيطمئناني، لعلهما ملا مني ومن كوابيسي لكنهما تمتلكان صبر عظيم، وقلبان رحيمان كم أنا محظوظ بهما.

لكن قبل شهران انتهت كوابيسي جميعها الآن فقط شعرت بالحرية.

الفصل الخامس عشر
(الحاضر)

مد يده نحو جهاز التسجيل وأقفله ثم نظر إلي بعينان جادتان قلقتان

– أشعر بأن علي أن أخبرك لما انتهت كوابيسي، لكنني لا أستطيع السماح لك بتسجيل صوتي وأنا أحكيها، إنها آخر أحزاني أو أتمنى أن تكون، كم سأحب أن تنشريها.

(الماضي)

منذ أن استعدت عقلي وأنا أتخيل نفسي أنحر ذلك الرجل، قبل خمس سنوات اشتريت منزل العجوز بالطبع بأوراق مزورة لا يمكن تعقبها، وزودت به حساسات للحركة في جميع أنحاء المنزل، بمجرد أن تحدث حركة داخل المنزل يطلق إنذار تنبيهي على هاتفي لأعلم بأن هناك أشخاص في المنزل، وفي صباح يوم خريفي بارد فتحت هاتفي المخبأ في درج سري في خزانة ملابسي، ووجدت جميع أجهزة الحساسات بداخل المنزل تكاد تجن من كثرة الإنذارات، توقعت بأنه يدور في منزله كيف يشاء كنت غاضباً بشدة لكنني سيطرت على نفسي تركت رسالة لزوجتي على الثلاجة اعتذرت منها وأخبرتها بأنني قد أغيب ليومين لأتحقق من قضية في عملي.

أخذت حقيبتي الرياضية المخبأة في كيس أسود في خزانة قديمة في قبو منزلي، ووضعتها في مقعد الراكب بجانبي وبدأت رحلة انتقامي أو بالأحرى حماية عائلتي فهو لم يعذبني فقط بل وعدني بأسوأ مصير قد أتخيله لمن أحب.

لذا لا بد من أن يموت ..

وأخيراً وصلت

أشعر وكأنني بلغت الخمسين من عمري، خمسة ساعات فقط لكنها امتدت لي كعشرون سنة، يداي ثابتتان وكأنها تدعمني فيما أنوي ذهني صاف، وقلبي تملؤه الرغبة بالانتقام ،، لذا خرجت من سيارتي وقد أوقفتها على بعد عدة أمتار من المنزل، من هدئ اللئيم.

المكان هادئ كفراغ في الفضاء، لا حركة لا صوت ولا حتى نسمة هواء

سوى صوت خطواتي المتسارعة نحو المنزل أعبر البوابة الأمامية لأرى الكثير من الأوراق المتساقطة، والحديقة المهملة، كانت سيارته الجديدة تقف بجانب النافورة التي تكسوها الطحالب والأعشاب، أنه هو، تذكرت لمحات من الماضي حين أخرجوني من هنا وأنا أصارع الموت، سيارته القديمة كانت تقف هنا بالضبط بنفس زاوية الميلان نحو النافورة القبيحة.

وضعت حقيبتي على الأرض لأستخرج منها كشاف صغير، صاعق كهربائي ومسدس بكاتم صوت وشفرة حلاقة فضية وحبال متينة، فهو رجلاً قوي فقط أتمنى بأنني قد ازددت قوة وهو قد ازداد وهناً تركت الحقيبة بجانب الباب، فتحت الباب الأمامي بمفتاحي القديم، دخلت بهدوء أبحث عنه ، له آثار في المطبخ وفي غرفة نومه لا يبدو بنفس ترتيبه السابق أنه أكثر فوضوية، انتهيت من المنزل بلا نتيجة لعله في الأسفل ، كنت خائفاً من أن أنزل إلى هناك لكنني سأفعل حبي لعائلتي يمنعني من تركه حياً حتى لو كان في سجن لن أرتاح حتى أشهد موته.

فتحت باب القبو ببطء شديد المكان مظلم لكن نور ضئيل يظهر من خلف الباب الحديدي لم يكن مقفل كنت أرى من بعيد الضوء الأصفر الكئيب، نزلت بلا صوت

محافظاً على الصاعق الكهربائي بيدي اليمنى والكشاف بيدي اليسرى أخذت ثلاث أنفاس عميقة وركلت الباب بقدمي ووجهت النور نحو السرير الخرب كان يستلقي هناك نائم تحت لحاف خفيف مهترئ، صرخت به

- أستيقظ أيها العجوز.

لكنه لم يتحرك، كتلك الأخشاب المثبتة على الأرض. تذكرت صوت نشيج جودي وصوت تأوهات فيليب وأخيه الفاقد لوعيه، تذكرت كل هذا وفاضت مشاعري بالحزن والألم، ركلت قدم العجوز فتحركت كردة فعل ثم سكنت هل يعقل هذا؟ هل مات أم هل رآني؟ وهو الآن يخدعني ويستدرجني إليه حتى يقبض علي فتعاد الحلقة من جديد، لذا أخرجت المسدس الصاعق من جيبي وأطلقته عليه مرتان لكنه لم يتأثر نعم بالفعل هو ميت لا يمكن أن يكون الأمر هكذا كان علي أن أقتله كان علي أن أثأر لزملائي هنا، دماءه القذرة عليها أن تسيل هنا.

اقتربت منه وجسست نبضه لكنه جسد خالي من الروح، لا نبض فقد مات منذ ساعات، جثة باردة ترقد في قبو بائس،جلست بجانبه ورصصت أسلحتي أمامي وقلت محدثاً نفسي:

- كل هذا من أجل جثة؟؟!

بكيت جودي وفيليب وكارل ،وبعد شروق الشمس أخذت أغراضي جميعها وغادرت المنزل بلا عودة.

تلك الليلة نمت قرير العين، أنها المرة الأولى التي لم أصرخ بها في نومي كعادتي ولم تزرني الكوابيس، أخبرت زوجتي وأختي بالقصة وبأن الرجل العجوز قد مات قبل أن أنتقم منه، بالطبع غضبتا علي بشدة خصوصاً إيفا تجاهلتني لأسبوعان، لكنني وجدت

الراحة في أعينهما بعد أن أخبرتهما بموته.

وأخيراً قال بوجه مبتسم

- وهنا انتهت حكايتي.

سألته ملقية بشكوكي عليه

- وكيف أعرف بأنك لم تقتله ؟ بأنك فقط غيرت القصة لصالحك؟

تراجع إلى الوراء مسترخياً على كنبته، وعلى وجهه ابتسامة انتصار

-عزيزتي إميلي لو قتلته لما وافقت على نشر القصة من الأساس .

النهاية